892.7109
Ta112laA

أدب المرأة العراقية

بقلم

بدوي أحمد طبانه

١٩٤٨

الناشر
دار العالم العربي

الادارة: دار التوزيع والطباعة والنشر
٥٣ شارع ابراهيم باشا (امام شبرد) بالقاهرة

Cat. 29 apr. '53

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٣٦٨ — ١٩٤٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى العراق العزيز ...

ذكرى سنوات في ربوعه العلمية والأدبية

أوحت هذه الكلمات ...

وإلى العروبة، مجتمعة الشمل موحدة الرأي

وإلى لغتنا الحية،

وإلى أدبها الخالد،

أهدي هذه الصفحات ...

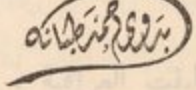

تصـــدير

بقـــلم

الأستاذ الكبير الدكتور إبراهيم سلامة

أستاذ البلاغة والنقد الأدبى بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

—=—

أتاحت لى ثلاث السنوات التى أمضـــيتها فى العراق أستاذاً فى « دار المعلمين العالية » فرصة التعرف القريب لبلاد كنا نحبها قبل أن نراها ، لأنها كانت البيئة الروحية للأدب العربى الذى تصبو إليه أفئدتنا ، ويهوى إليها هوانا ، على اختلاف بيئاتنا الجغرافية .

وقد أعجبنا بالشباب العراقى ، فقد رأينا فيه توثبا وروحاً قوية مندفعة نحو العلم ، سرى سرها من بعيد فى مجاهل الليل الذى شمل البلاد العربية ، وتحت جنح تلك الظلمات التى غشيتها ، وأبى ذلك الروح السارى إلا أن يقيم كما كان فى العراق .

وأكثر ما أعجبت به ، بل أكثر ما راعنى البنت العراقية ، فقـــد رأيتها على مقاعد الدرس إلى جانب الفتى العراقى تســـابقه فتسبقه ، وتماجده فتمجده ، وما تنازعه إلا أطراف المجـــد العلمى ، فتلتف يدها على النصيب الأكبر منه ، أو توازى قوتها قوته فى الأقل . ورأيتها وحـــدها فى « دار المعلمات » تلتف على طبيعتهـا وتدرس كل ما يتصل

ببيئتها ، فوجدت منافسة النظير للنظير ، لا تقل قوة وأثراً عن منافسة الجنس ، فلقد كانت الفتيات يسبقن فى الدرس وفى التحصيل ، ويعمدن إلى التفوق والظهور ، عند ما يكلفن ببحوث علمية أو أدبية .

لذلك لم أجد هذا البحث الذى يبحثه صديق وتلميذى « الأستاذ بدوى طبانة » غريباً عنى ، بل لقد قرأته والابتسامة على شفتى ، والذكريات تضغى أمام شاعرات اليوم وطالباتى بالأمس ، أنشد شعرهن ، وأومىء برأسى إيماءة الرضى والاستمتاع أقرأ شعر إحداهن ، وأتمثلها أمامى فى عباءتها ، فلا يسعنى إلا أن أقول : « أحسنت يانازك ..! مرحى ياعاتكة ! . استمرى يا ابنتى فلك الغد . . » ! . والنبوغ مخايل تظهر أول ما تظهر على مقاعد الدرس ، ثم تكون فى الحياة أثراً من الآثار ، وحقيقة من الحقائق ، يسر بها الأستاذ أكثر السرور ، ويغنى بها نفسه أوفر الغناء ، فمهمته أن يلمح المخايل ، ثم ينميها ، ثم يتعقبها ، ثم يستمتع بها كما يستمتع البستانى بزهراته ، يوم أن تتفتح عن جمال ، وتفصح عن عبير وشذى . . إنه يجلس إلى نفسه مستمتعاً بجهوده ، يردد سروره فى حديث نفسى ، وربما اندفع به سروره إلى أن يخاطب نفسه : نعم أنا الذى اخترت لزهراتى هذه التربة ، وأنا الذى وجهتها نحو الشمس الصاحية ، والضوء الضاحى ، وأنا الذى شذبت ما علق بها من طفيليات ، ورددت الناد منها إلى السياج الذى يتحمل ثمرها ، وأنا الذى خلصتها من الأعلاق التى تتشبث بها ، فتعوقها عن النمو والسمو . . ذلك ما يقول البستانى بعد أن تتنور زهرته .

أليس من حق المعلم والأستاذ أن ينعم بما ينعم به هذا البستانى يوم يرى أن زهراته ملأت الأرض روحاً فواحاً ، وملأت النفوس نغماً شادياً ، والقلب شعراً مطرباً معجباً ! ؟ ولم تنم هذه الزهرات

عن فوح الجمال فحسب ! بل سارت بالحكمة والهداية ، فنبهت إلى حق وأغرت به . وحدت من باطل وصدفت عنه . وحدت السيارة بحداء استبقت به الهمم ، وانحدرت به الآمال إلى غاياتها .

تلك هى الفروق بين زهر البستان وزهر الآداب ، ففى الأدب ما ليس فى النبات . والحياة الأدبية لا تحد بتربة أو بأمة ، بل يأبى الأدب إلا أن يكون كما فهمه « Taine » من الناس وإلى الناس ، ومن العالم وإلى العالم . ومن هنا كانت رسالة الأدب أعلى الرسالات ، وكان للمعلم أن يسر أكثر مما يسر به البستانى . إن البستانى يحب زهرته الناضرة ، فإذا ذبلت قطعها ، أما المعلم فإن زهرته إذا ذبلت غذاها وقواها ، وعد لها بيده إلى حيث تطلع الشمس ، فتهبها الحياة ثانية .

وكم لمحت فى « نازك » الشاعرة العراقية التي يعرف بها أديبنا صمتا ممضا ، لا يلبث أن يتنفس عن حكمة . كان وجهها الطفلى الصغير تغومه سحائب من قلق لا أعرف مأتاه ، وربما لا تعرف هى مأتاه ! وكنت أهم أن أبدد شيئا من هذه السحب التى تغشى الهلال فى أيامه الأولى ، ثم أرجع فأحترم هذا الصمت ، حتى إذا حانت مناسبة رأينا « نازك » تهتف هتافا عاليا بشعر رائق بديع يجرى كما يجرى المـــاء فى المسارب الصغيرة لا تسمع إلا خريره ، ولا تنظر إلا إلى صفائه ، على أنك تلمح فى شفافية هذا الصفاء ، أن هذا الغدير يجتاز فى مسراه قليلا من العقبات لا تلويه عن الجريان ، ولكن تعرج به هنا وهناك ، ثم لا يلبث أن يطرد ويسير ، بل يتدفق إذا قرب من مصبه .

وهذه « عاتكة » أراها فى عباءتها العراقية ، فى آخر الصفوف متقبضة كالخائفة يقظة كالخائفة أيضا ! وخوفها الأول من فرط أدبها ، وخوفها الثانى من الحرص على تقاليدها ، ولكنها واعية مستوعبة لكل

ما يلقيه الأستاذ ، تنظر فى كتابها مستفيدة ، وتتطلع إلى أستاذها مستزيدة ، فنشأت بين العناية بنفسها ، وعناية أساتذتها بها . ولكنها مع ذلك تبدو فى سواد دائم ، ولقد تستشف نفسها ، فتجد أن نفسها اشتملت على سواد ثيابها ، ثم تعلم من أمرها أن عاطفتها مقسمة بين نفسين هى منهما : نفس أبيها وقد تركها طفلة فهى لا تنساه ، كما أنها لا تذكره ، ونفس أمها التى أفرغت فيها كل عواطف الأمومة ، وأفرغت لها كل جهودها العلمية لتقابل جميلها بصنيع جميل .

عرفت « عاتكة » تقول الشعر ، وتقوله طبعا سهلا ، دالا على عاطفتها ، مصوراً بالصورة القاتمة التى تضفيها عاتكة دائما على شعرها ، وكنا نستمع إليها فى حفلنا وفى مجتمعاتنا بدار المعلمين العالية ببغداد ، وقد سمعها سمو الوصى فى عدة مناسبات ، وأعجب بها وعطف عليها ، وعاتكة جميلة الأداء ، منغمة الإلقاء ، تفهمك شعرها ، وتدخله إلى قلبك بإلقاء دافع جذاب .

« نازك » و « عاتكة » هما من كنت أعرف فى دار المعلمين العالية من شاعرات العراق ، أما غيرهما فلم تسعدنى الظروف بمعرفتهن ، ولكنى قرأت لهن ما عرضه « الأستاذ بدوى طبانة » ، وعرضه معرف مصور ، يريك البعيد قريبا ، فتنظر إليه كأنك تراه ؛ فعلمت أن السويداء غنية لا برجالها ولكن بشاعراتها ، ومن أراد أن يعرف الفتاة العراقية فليسأل « الست أمت سعيد » مديرة دار المعلمات فى أيامى ، وعميدة « معهد الملكة عالية » الآن ، تلك المربية الجليلة التى تولت الفتاة العراقية ، والتى تعد المرأة العراقية ، لا أنساها يوم قدمتنى لفتياتها فى المرة الأولى لدخولى المعهد لتدريس الأدب العربى ، وقد حييت فتياتى بكلمة أفصحت فيها عن أمانى فى فتاة اليوم ، ورجائى فى سيدة

الغد ، وما كان أشد تأثرى حينما رأيت الفتيات يقابلن كلمتى بالدموع ، دموع التأثر على هذا الماضى ، ودموع الرجاء الحار في المستقبل .

عرف العراقيون فى الست « أمت » رجاء العراق ، وعرفت كيف تثير فى فتيات العراق رغائبهن وميولهن ، وتوجههـا التوجيه الصالح .

لا أنسى هؤلاء الفتيات فى بحوثهن وجدهن وتطوافهن على المكتبات وراء بحث يكلفن به ، ومن يزر مكتبة المعهد يقرأ فيها آثار هذه الجهود الصحيحة الدالة على صدق الرغبة وصدق العزيمة . هذا هو المعهد خلية المرأة العراقية ، والأيدى العاملة فيه أيد عواسل ، إلا أنها أيد عاملة مجدة ، ينتظر عرفها وخيرها .

ولنعد الآن إلى هذا العمل الجليل الذى انتهزت فرصة النظر فيه لأبعث وأنا على مكتبى فى القاهرة بتحية حسنة جميلة للفتاة العراقية ، وللمرأة العراقية التى احترمتها وأحترمها ، وأرجو خيراً كثيراً لبلادها وللعروبة على يديها .

عرفت الأستاذ « بدوى طبانة » طالباً كأحسن ما يكون عليه الطالب الممتع بالذكاء ، المنقب عن الفائدة ، ثم عرفته فى بغداد مدرسا فى مدرسة ثانوية لم يمكث بها إلا قليلا ، حتى رشحه جهده وعمله إلى التدريس فى دار المعلمين العاليـة فى بغداد أرقى البيئـات العلمية فى البلد الشقيق يدرس فيها البلاغة والأدب ، وقد استفاد من بيئة العراق ، التى لا يزال أدبها غضاً معجباً فى بغداد وفى الحلة وفى النجف ، وغيرها من الأمصار العراقيـة ، وعرفه عالم العراق المرحوم « طه الراوى » أفسح الله له فى نعيمه ، بقدر ما كان يفسح صدره ومكتبته لطلابه ،

فقدره وكرمه ، وعرفه أديب العراق الكبير العلامة « رضا الشبيبي » فقربه وشاركه فى عمل أدبى جليل .

ولقد وقف المؤلف بنفسه على الحركة الأدبية فى العراق ، ولا تزال مواسمها الدينية أسواقا للأدب ، والعراق ملتهب بالعاطفة الشعرية ، التى أساسها اللوعة على الحسين وآل بيته ، وملتهب بالوطنية القومية التى يندفع إليها العراقيون اندفاعاً سريع العدو فى جميع الميادين .

واللوعة التى تهيجها الذكريات الدموية القديمة فى الإسلام قد خفت صوتها المذهبي تحت تأثير القوميـــة ، ولكن دمعتها الحارة أهاجت كوامن الشوق ومواطن الحب ، وحركت من الأحاسيس المختلفة ، وأجرت الشعور فى الخلايا الحية من هذه الأمة التى لا تموت ، فسلم الشعر العاطفى والقومى فى العراق ، وكان للمؤلف مجاله فيما بينهما .

فقد قدم لنا القومية فى كتابه « معروف الرصافى » فى دراسة تحليلية نقدية ، وقدم لنا العاطفة فى « أدب المرأة العراقية » وفى شاعريتها بطريقة لا نصفها بأنها حديثة جذابة فحسب ، بل يمكن أن نصفها بأنها فنية أيضا .

فإنه قبل أن يعرض لشعر الشاعرة ، يقدم له ، أو يقدمها لنا ، ويتعرف مواطن المشاعر فيها فيصفها ثم يستشهد بشعرها ، فلا يسعك إلا أن تقول له : صدقت ، هذا قول يدل على قائله ، وتلك آثار تقع عليها الخطا . كما يقع الدليل العريف على آثار الحط والترحال .

وإذا كان لنا ما نقول فى عمله فذلك أنه لم يعرض لشاعراته عرضا نقديا ، بل اكتفى بالنماذج والتحليل مع يسير من النقد ، اعتذر عن كثرته بأن ما لديه من النماذج قليل ، وبأن الناشئات فى العراق فى حاجة

إلى التشجيع ، أكثر مما هن فى حاجة إلى التبصير ، الذى يمكن أن يؤثر فى عواطفهن الرقيقة ، ولا أقره على اعتذاره ، فالصورة الأدبية لا تغنى غناءها ما لم نتعرف مأتاها ، من أين جاءت ؟ أمن البيئة القريبة فتكون طبيعية ؟ أم من البعيد المنقول فتكون أجنبية عن البيئة ؟ ولو كانت قريبة من نفس الشاعر ، وهل أدت ما يرمى إليه الأديب ، أم قالها لنفسه ؟ يغنى بها فيطرب ولا يطرب الناس ؟ وفى مثل هذه الوقفات بيان للمذاهب الحديثة التى تأثر بها الأدب عامة : عراقيه وشاميه ومصريه ، وفى النماذج التى ذكرها ما يعين على هذا التحليل والنقد ، فالرومانتيكية أو الإبداعيـــة بادية فى شعر أم « نزار » وفى شعر ابنتها « نازك » مع تنقلات بين الرمزية والطبيعية فى شعرهما ، وفى بعض شعر ونثر « لميعة » وفى « عاتكة » كلاسيكية أو « اتباعيـة » ظاهرة مع نواح فردية لا نستطيع أن نجمعها تحت اسم مذهب من المذاهب الحديثة ، ولكنها تنزع نحوها . وفى « رباب » كلاسيكية موروثة عن الأب ومستمدة من همومه .

فأم نزار — وكذلك نازك ابنتها — لا تعنى بالقافية ، ولا يستطيل نفسها فيها ، بل تستنشق هواءها الشاعرى بهدوء وقدر . فمتى انتهت من فكرتها انتهت من قافيتها ، ومتى شعرت بعاطفة جديدة ، وأحست بنغمتها فى روحها اختارت عاطفتها مجراها وقافيتها ، ثم هما تقفان بين كل عاطفة وأخرى ، تستعذبان ما قالتا فى نغمة جديدة ، لا هى من القافية الأولى ، ولا من الثانية ، ولكنها بنفس هادىء مريح ، أشبه بتنفس الجارى فى ميدانه إذا وقف إلى جانب غايته أو أدركها . ولولا أنه من السهل أن يقف القارىء بنفسه على مدلول تلك النماذج الشعرية لذكرنا إلى جانب كل شاعرة نموذجا مما تقول .

وبعد هذه الكلمة القليلة لا يسعنى إلا الثناء على ثلاثة : العراق ، ومن أنجب ، والمؤلف الذى يحب العراق ويحبه العراق . .

أما العراق فله مجده وهو فى نهضته يقلب صفحاته القديمة ، ويعتز بها كما يعتز الأثرى بتحفه ، ولكنه يتصف فيها بذوق حديث ، وهو أبدا يتجه بأدبه اتجاها فيه قوة الماضى وتركزه ، وفيه حيوية الحاضر وضوؤه ولمعانه ، ولا أنسى « الجبوبى الكبير » وموشحاته التى نبغ فيها ، وحملها أغراض الشعر فحملتها فى هدوء ، وكانت قديما للغناء والتفكه فحسب ، ولا أنسى الشاعر اللبق القديم الجديد المتبع المبتدع « محمود الحبوبي » الذى يعلق الآونة بعد الآونة نفيسا فى نفائس العربية ، والشعر فى العراق كأثواب المجد ، يمسك الرجال بأطرافه وتطرزه النساء بكل مبتدع جديد ، وأرجو أن يقبل صديقى محمود الحبوبى هذه التحية التى أبعث بها إليه مع أدب فتيات العراق .

أما المؤلف فقد أحب العراق ، وخصه بجهوده ، والعراق يحفظ الجميل ، والمؤلف بهذا الاتجاه الذى علق به حبه سيجد مجالا كبيراً لدراسات عديدة ، وسيجد فى هذا الهوى نواحى عذرية نحب نسيمها ، ونتعرض له ، ونصبو مع صباه ، وسيجد لكتابته قراء فى العراق ، لأنه يحدثهم حديثا مباشرا من الفم إلى الفم ، ومن القلب إلى القلب ، وقراء فى مصر وسائر بلاد العروبة ، لأنه يحدث عن إخوان عزيز علينا ذكرهم ، حبيب إلى نفوسنا مغناهم وغناؤهم ، إذا عاشرناهم أحببناهم ، وإذا تركناهم تلفتنا إليهم ، كما كان يتلفت العربى الأول إلى هواه ويقول :

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهله ... فما عهد نجـد عندنا بذميم

القاهرة — ابراهيم سلامة

مقدمات

١

حـــديث . . .

فى أمسية من أمسيات ربيع سنة ١٩٤٧ أخذت دار المعلمين العالية فى بغداد زخرفها وازينت . فتلألأت مداخلها ، وازدهرت أبهاؤها وأشجار حدائقها بالأنوار ، ورفرفت على مداخلها أعلام العروبة ، فبدت فى هذه الأمسية فى حلة تخلب الأبصار ، وتأخذ بمجامع القلوب .

ولم تكن هذه أول مرة تبدو فيها الدار فى هذا الثوب الأخاذ الذى ارتدته أبنيتها ، فلقد اعتادت أن تلبس مثل هذا اللبوس فى مناسبات شتى حين تحتفى بزائر كريم ، أو مقدم ضيف عزيز ، أو فى حفلة من تلك الحفلات التى اعتادت الجماعات العلمية والأدبية والرياضية فى تلك الكلية أن تتنافس فى سبيل تنسيقها وإجادتها ، ولكن المناسبة فى هذه الليلة الفائقة كانت مظهراً من أجمل مظاهرما تكنه قلوب شباب هذه الأمة نحو إخوانهم من شباب العروبة فى مختلف أمصارها وأقطارها .

كان الضيوف فى هذه المرة رهطا من طلاب إحدى البـــلاد العربية الذين وفدوا على العراق لزيارة وادى الرافدين ، والوقوف على حضارته ومعالم نهضته ، وليوثقوا صلات الأخوة بينهم وبين إخوانهم شباب دجلة والفرات ، ولعل هذا العامل كان السبب فى جمال هذه الليلة وفوقانها وأناقتها .

اختلف المدعوون إلى موائد الطعام ، ثم التقوا بإخوانهم من أساتذة الدار وطلابها وطوابها فى قاعة المحاضرات ، فجلسوا فى حلقات يصغون إلى عبارات الترحيب شعرا ونثرا ، ويلهون فى سمر عذب برىء بما كان قد أعد لهم فى هذا المجتمع الجميل .

وكنت أحد المشاركين فى الحفاوة بالقوم ، وما لبثت غير قليل حتى همس فى أذنى أحد غلمان الدار بأن مناديا يناديني ، ويطلب التحدث إلى بالمسرة ، فطابت إليه أن يعرف المتكلم وينظره حتى ينتهى الحفل ، ولكنه عاد يلح فى الطلب إذ لم يجد السبيل إلى الاعتذار فاستأذنت صحبى ، وهرعت إلى المسرة وجرى الحديث :

ـــ من المتكلم .. ؟

ـــ أنت فلان ؟

ـــ نعم .. أنا هو ؟ ومن يكون المتفضل بالسؤال ؟ (فقد أحسست أن المتحدث سيدة لم يسبق لى أن سمعت صوتها)

ـــ لا داعى لهذا الآن وستعرفنى بعد حين ! . . عذرا إذا حرمتك من حفلكم الحافل لسؤال أرجو أن تسمح بالإجابة عنه .

ـــ أرجو أن يعيننى الله على الجواب . . !

ـــ من قائل هذا البيت :

« وكم قرطست . . . . . » ؟ ؟

وكان البيت من قصيدة للرصافى فى أحد علماء البغداديين ، وفيه الإقذاع والهجو المر ، وكنايات لا يحسن أن تجرى على الأفواه ، فعجبت لهذا الحديث من امرأة فى خطاب رجل لا تعرفه ، وخفت أن يطول الحديث على هذا النحو ، وما أسرع ما أجبت :

ـــ لا أعرف هذا الشعر ، ولا أعرف قائله !

ـــ (أجابت فى تشف وانتقام) إنه للرصافى يا صاحب الرصافى !

وأخذت فى إنشاد القصيدة التى اختارت منها هذا البيت .

ـــ لا أذكر أننى قرأته .

ـــ سؤال آخر : أى شعراء العراق تفضل ؟

ـــ لا أستطيع المفاضلة فى كلمة عابرة ، ولكن فى العراق عددا من مجيدى الشعراء منهم الشبيبى والجواهرى والحبوبى والأزرى و . . و . .

ـــ نسيت أشعر هؤلاء جميعا . . نسيت السيد خيرى الهنداوى ، ألم تقرأ قصيدته . . وقصيدته (وأخذت تتلو شعرا فى الغزل والخمريات لهذا الشاعر الكبير) . . . ؟

وطال الحديث على هذا الغرار ، دون أن أظفر بالوقوف على صاحبة هذا الصوت أو هذه الأديبة الواعية ، فقد طلبت أن أؤجل معرفة ذلك إلى فرصة أخرى .

وعدت إلى حلقتى يتنازعنى عاملان : عامل الإعجـــاب بهذه القدرة الفائقة على الحفظ والرواية ، والقدرة البارعة على التحدث فى الأدب وفنونه ، والإلمام بشواهده وشوارده ، وعامل الدهش باستتار ذوات هذه المواهب فى خدورهن ، لا يعربن عن مواهبهن ، ولا يفصحن عنها وما يردن أن يعرفن ، ولوأنهن برزن بهذه العدة الأدبية لأتين بكل جديد يدعو إلى الدهش والإعجاب .

ويستحيل أن تكون واحدة لا ثانية لها فى وادى الرافدين تلك التى لم تمط اللثام عن اسمها ، ولم تعرب عن شخصها ، بل لا بد أن يكون هنالك نظائر لها حال بينهن وبين الشخوص فى المجتمع الحفـــاظ على التقاليد الأسرية الموروثة التى تحرم على المرأة البروز فى المجتمعات ، أو الكتابة فى الصحف ، فبقين فى الخدور كالزهور فى الأكمام ، ولو قدر لهذه النماذج أن تبرز يوما من الأيام على صورة واضحة لأحدثت فى عالم الأدب حدثا كبيرا .

ولكن على الرغم من البيئة المحافظة والتقاليد الموروثة التى أبقت المرأة العراقية خلف حجابها فإن هناك من ارتدن الطريق ، وفتحن الباب أمام أخواتهن فكن بحق (الرائدات) .

لقد كان الحديث الذى ذكرت منبها لما كان غافلا من بعض الصور الأدبية التى أتيح لى استطلاعها فى بعض فرص العمل خلال إقامتى فى العراق .

٢

الشعر العراقى بين حاضره وماضيه

إن نهضة العراق الأدبية كما يجدها البـاحث المدقق قد اختصت بالشعر دون النثر ، وربما كان ذلك من خصائص الأمم فى مطالع نهضاتها الفكرية والعقلية ، فيخصب خيالها الذى يشرق ويغرب فى منفسح الحياة وفى رحابها . وليس معنى هذا أنه لا يوجد فى نهضة العراق الأدبية نثار ، ولكن معناه أن مظهر الحياة الأدبية هو الشعر ، وأن النثر بالقياس إليـــه وبالقياس إلى نهضته وتنوع فنونه وتعدد أعلامه فى بعض الحواضر العربية ليس شيئا مذكورا .

والحق أن حاضر الشعر فى العراق لم ينبتر عن ماضيه ، فإن من أسباب رواج الفنون الشعرية فى هذا الجزء من بلاد العربية تأصل النزعة الشعرية ومتابعة جهود الشعراء فى عهد ازدهار العربية وآدابها أيام العباسيين ، وعلى الرغم من الانحطاط السياسى والتـــدهور الاجتماعى الذى ساد العراق بعد ضعف الخلفاء ، والحادث الجلل فى

تاريخ العراق وتاريخ العروبة وأعنى به سقوط بغداد عند منتصف القرن السابع الهجرى ، ظلت للعراق منزلته الأدبية فى عالم الشعر ، ونبغ فيه شعراء تابعوا فحول المبرزين من أعلام الشعر حتى فى أشد عصور التاريخ حلوكة وظلاما ، وإن كانت هناك حلقات مفقودة تتوسط هذه الأزمان ، وإن كان هناك اصطباغ للشعر فى بعض عصوره بلون مايتصوره الناس للمثل العليا الشعرية فى المعانى والأخيلة ، ثم فى الألفاظ والأساليب .

فحين كانت للشعر البديعى دولة فى العصور المظلمة لم يعدم العراق شعراء أسرفوا فى صبغ شعرهم بالمحسنات البديعية ، وإلى جانبهم غيرهم من المطبوعين الذين صانوا شعرهم عن مظاهر التكلف وآثار الصناعة ، فانبعث شعرهم صدى لشعورهم الخالص ، ومايعتلج بين جوانحهم من العواطف ، وبفضل هؤلاء لم ينقطع تيار الشعر الأصيل فى العراق عن التدفق والانثيال ، على عكس غيره من بلاد العرب .

ومن الخطأ البين الذى وقع لأكثر الذين كتبوا فى تاريخ الأدب وأرخوا نهضته فى عصر الانبعاث ، عدهم أو تأريخهم بدء النهضة الشعرية بالبارودى الذى قالوا عنه إنه حامل لواء هذه النهضة الشعرية فى العصر الحديث بعد إرهاص له على يد اسماعيل الخشاب ، وصفوت الساعاتى ، والسيد على الدرويش ، وغيرهم من سابقيه إلى الوجود .

قد يكون هذا صحيحا بجملته فى مصر، وقد يكون صحيحا فى بعض جاراتها، ولهذه الدعوى ما يبررها حين نستقرىء المأثور من شعر عصر الانبعاث وشعر الأيام السابقة فى عهـــد المماليك والعثمانيين، إذ أن البعد سحيق، والبون شاسع بين حالة الشعر فى مصر بعـــد البارودى، وحالته قبل هذه الطبقة التى ذكرنا.

أما إذا ذهب إلى أن هذا الحكم عام يشمل مصر، ويصدق على جميع بلاد العربية فذلك الخطأ فى الرأى والخلط فى الأحكام.

إن العراق لم توجد فيه تلك الهوة السحيقة التى نقرأ عنها بين شعراء العصر وأندادهم من شعراء العـــرب فى عهد ازدهار الشعر العربى أيام العباسيين.

ولست أستطيع أن أذهب إلى أن الرقة والتدفق، والعاطفـــة الصادقة، والنظم الرائق، والديباجة المشرقة التى أجدها فى شعر محمد سعيد الحبوبى، أو شعر عبد الغفار الأخرس كانت طفرة لا صلة بينها وبين التعثر المزرى أيام الفترة المظلمة.

ولست أستطيع كذلك أن أذهب إلى أن الفحولة والفخامة والجزالة فى المعانى والأساليب التى أقرؤها فى شعر محمد رضا الشبيبى، كانت أثرا من آثار هذه النهضة المزعومة، كما يحدد مولدها مؤرخو الأدب العـــربى.

بل إن أثر النهضة فى الشعر العراقى لا يعدو ناحية الأغراض والفنون، وشعراء العراق فى هذه المرحلة من الزمن يشاركون غيرهم من شعراء العربية فى هذا القدر ، ، وأعنى هذه المشاركة فى اختيار الموضوعات التى تتصل بحالة بلادهم ، والبحث عن العلل التى تقعد بقومهم عن مجاراة غيرهم من الأقوام الناهضة ، والتعبير عن الآمال التى يعلقونها على مستقبل هذه البلاد من ناحيتها السياسية ، وناحيتها الاجتماعية .

هذا القدر هو الذى يشارك فيه العراقيون نظراءهم من شعراء العرب ، أو إن هذه الناحية هى الأثر الواضح أو المظهـــر البارز للنهضة الأدبية ، والممثلون لهذه الألوان من شعراء العراق كثيرون ، نذكر منهم جماعة من فحول الشعراء فى مقدمتهم الرصافى والزهاوى والكاظمى والجواهرى والهنداوى ومحمود الحبوبى وباقر الشبيبى وغيرهم ممن خاضوا فى السياسة وعالجوا شئون المجتمع فى شعر يغلب عليه طابع الحماسة ، وإن يكن لهؤلاء ولغيرهم من الشعر العاطفى الذى يعبر عن خلجات النفوس مايسايرون فيه غيرهم من الشعراء العاطفيين .

ولعل السبب فى بقاء هذه الجذوة مشتعلة منذ العصور العباسية هو أن هذه الطبيعة الشعرية قد تأصلت فى نفوس العراقيين ، وقد يخفت صوتها أحيانا أمام هول الأحداث الطارئة ، ولكن لا تلبث القريحة الصافية المواتية أن تثور بين حين وآخر ، فتكون أكثر حساسية

وتكون جذوتها أشد اشتعالا ، فلا غرو ألا تخلو فترة من فترات الزمان من عدد من الشعراء المبدعين .

ومن مظاهر هذه السليقة فى العصر الحاضر أنها لم تقتصر على الرجال ، بل تجاوزتهم إلى النساء . وإبراز هذه الظاهرة الأدبية هو موضوع هذا الكتاب الذى ذكرنا فيه بعض النابهات من أديبات العراق .

٣

المرأة العربية ودعاة حريتها

كانت المرأة الشرقية بعامة ، والعربية بخاصة ضحية إهمال شنيع وتقييد فظيع ، والرجل آخذ بأسباب النهوض ، فكان هناك بون شاسع وهوة سحيقة بين الرجل والمرأة ، طلب الرجل لنفسه الحرية ، وكبلها بقيود الاستعباد ، وطلب لنفسه العلم ، وأبقاها تتعثر فى دياجير الجهالة .

وهكذا بقيت المرأة العربية ترسف فى الأغلال ، وعطل بذلك نصف الأمة عن العمل ، فبقيت رهينة بيتها ، وقعيدة خدرها ، منزوية فى كسر بيتها ، وحصرهما فى تدبير الطعام وتربية الأولاد ، فربتهم تربية مشوهة على ما ألفت وعرفت من الأساليب العتيقة البالية .

هب جماعة من دعاة الإصلاح يحاولون إنقاذ المرأة مما تكابد من آلام ، وما تعامل به من عنت ، داعين إلى السفور وطرح الحجاب وضرورة تزود المرأة من حياض العلم والمعرفة ، حتى تعالج أمورها

على بصيرة من العلم والفهم، فدعا جماعة منهم إلى إشراكها فى سائر تكاليف الحياة، تنهض مع الرجل جنبا إلى جنب بهذه الأعباء وتلك التكاليف.

ومما لاريب فيه أن هذه الدعوات كانت جديدة على المجتمع العربى، فتلقاها بكثير من الإنكار، وارتفعت صيحات مدوية ترمى هؤلاء الدعاة بكل ذام، حتى رموا بالفسق وبالفجور، وبالسفه وبالكفران، وهذا شأن كل جديد لا عهد للمجتمع به، ولاسيما إذا كان هذا الجديد يتصل بالمرأة التى هى مناط عزة الرجل ونخوته؛ ومثار حميته وغيرته، والتى يذهب العربى فى سبيل صيانتها والحفاظ عليها إلى التضحية بالنفس والنفيس. فكانت منابزة لا يزال صداها يتجاوب فى أرجاء البلاد العربية بين جماعة «المجددين» الذين يدعون إلى تحرير المرأة، وجماعة «المحافظين» الذين يرون الإبقاء على ما هى عليه من التأخر والهوان.

وأصحاب الدعوة التحريرية كثيرون من أعـــلام الرجال، فى مقدمتهم قاسم أمين. أعظم الدعاة إلى تحرير المرأة فى عصر النهضة، كما نذكر منهم الشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى. ومعروف الرصافى وشاعر النيل حافظ ابراهيم، فإن هؤلاء الشعراء الثلاثة وغيرهم يصدرون عن شعور واحد ويرمون إلى هدف واحد، هو النهوض بالمرأة ومحاولة فك أغلالها، مع اختلاف تمليه البيئة التى نشأ فيها كل من هؤلاء الدعاة، وطبيعة كل واحد منهم من حيث الثورة الجامحة أو الميل إلى القصد والاعتدال، فإن حافظ كان غير مشتط فى دعوته،

لأنه يعرف البيئة المحافظة التى درج فيها، ويخشى عواقب هذه الدعوة فى نفوس أبناء وطنه الذين يجذبهم القديم ، ويخشون الخروج على المألوف ، ولذلك تجده غير صريح فى دعوته إذ ذاك ، وآية التردد فى ذلك قوله من قصيدته المشهورة :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً ... بين الرجال يجلن فى الأسواق
فى دورهن شئونهن كثيرة ... كشئون رب السيف والمزراق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا ... فى الحجب والتضييق والإرهاق !
ليست نساؤكم حلى وجواهراً ... خوف الضياع تصان فى الأحقاق !

ولكنك ستجد هذه المعانى أكثر وضوحاً وأوفى صراحة فى كثير من شعر الزهاوى الذى سيم من أجله صنوف العسف والإرهاق ، فهذا رأيه يزجيه فى صراحة لا التواء فيها ولا إبهام فى قصيدته « أسفرى » التى يخاطب بها المرأة العربية فيقول :

أسفرى فالحجاب يا ابنة فهر ... هو داء فى الاجتماع وخيم
كل شىء إلى التجدد ماض ... فلماذا يقر هذا القديم ؟
أسفرى ! فالسفور فيه صلاح ... للفريقين ثم نفع عميم

ويتهم الحجاب بمخالفته الذوق والشرع :

لم يقل بالحجاب فى شكله هذا نبى ولا ارتضاه حكيم
هو فى الشرع والطبيعة والأذوا ... ق ، والعقل والضمير ذميم
هو سجن لهن من غير وزر ، ... وهو حرمان النور وهو الهموم
ولقد تطلب العذارى نسيما ... ثم ما إن يهب ذاك النسيم

ويخاطب المحافظين الذين يخافون على المرأة التردى إن هى أسفرت فيقول : إن الحجاب ليس هو الذى يقى عفة الفتاة ، وإنما التعليم والتثقيف :

زعموا أن فى السفور انثلاما ... كذبوا ، فالسفور طهر سليم
لا بقى عفة الفتاة حجاب ... بل يقيها تثقيفها والعلوم

أما الرصافى فقد حبا المرأة بما لم يحبها به شاعر غيره ، فصور الحالة البائسة التى آل إليها أمرها فى الشرق حتى صارت كسقط المتاع ، وكأن الناس فى هذه الديار لا يعرفونها لغير الاستمتاع ، فألحقوا بالنساء العار :

وقد زعموا أن لسن يصلحن فى الدنا ... لغير قرار فى البيوت وباء
فما هن إلا متعة من متاعهم ... وإن صن عن بيع لهم وشراء
أهانوا بهن الأمهات فأصبحوا ... بما فعلوا من ألام اللؤماء

وينفرد الرصافى دون الدعاة إلى تحرير المرأة بمعنى من أسمى المعانى ، ولا نظن أحداً من دعاة حريتها ، ورسل نهضتها استطاع أن يقول فى حقها ما قال الرصافى .

فقد أعلن أن تقييد المرأة وأسرها حتى أصبحت فى البيت أمة من الإماء ، مسلوبة الرأى حبيسة المنزل ، قد جر ضرراً شنيعاً ، ووزراً فظيعاً ، ذاك أن الرجال رضوا بحياة الذل والاستعباد ، لأنهم ربوا فى حجور الإماء ، والولد بأبويه أشبه ، وبهما ألصق ، فأشربوا الذل

والهوان، لأنهم رضوا لأمهاتهم ولزوجاتهم الذل والهوان، فقد تعودت الأمة أن تستجيب لسيدها، ومالك رقها، وليس لها من أمر نفسها كثير أو قليل، فرضى هو لنفسه الخنوع والاستسلام لحكامه الظالمين وسادته المتعسفين:

ولو أنهم ابقوا لهن كرامة ... لكانوا بما أبقوا من الكرماء
ألم ترهم أمسوا عبيدا لانهم ... على الذل شبوا فى حجور إماء!
وهان عليهم حين هانت نساؤهم ... تحمل جور الساسة الغرباء [1]

وهكذا ترى أن شاعرى العراق كانا فى حملتهما الصادقة على تقييد المرأة والوقوف فى سبيل حريتها جريئين كل الجرأة، وهى جرأة مبعثها الإيمان بما يدعوان إليه فى حماسة ظاهرة منقطعة النظير، ولا سيما فى العراق الذى تعرف غيرته على العادات والتقاليد.

كان من أثر هذه الدعوات الصادقة أن تنبهت المرأة العربية من غفوتها، وأفاقت من غشيتها، ورضخ الرجل لهذا التيار الجارف الذى لم يستطع مغالبته. فجلست إلى جانبه فى معاهد العلم، وشخصت معه إلى مصادر الثقافة فى بلادها وفى خارج بلادها، فتثقفت وأخذت من الحديث ما أضافته إلى زادها الأصلى الذى تزودت منه فى ربوع بلادها، فاقتحمت مسالك الحياة، وخاضت غمار العلوم، وعالجت

(١) ص ١٤٩ معروف الرصافى: دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية. بقلم المؤلف.

الفنون ، محتذية فى ذلك حذو الغربيات اللائى ضربن بسهم فى مناحى الحياة وشعابها ، وقد بلغت فى ذلك بعض آمالها ، وحققت بعض الغايات التربوية ، ففهمت الأمومة الفهم الصحيح ، وعنيت بتنسيق بيتها ، وقرأت وتثقفت ، وشاركت فى بعض الأعمال العامة ، فكانت معلمة وطبيبة ومحـــامية ، وواست الجرحى ، واحتضنت المشردين وحنت عليهن ، وساهمت فى أعمال البر ، وغير ذلك مما هو فى مقدورها وواقع فى حدود استطاعتها .

* * *

ولقد سجل التاريخ لبعض النساء العربيات مآثر ونبـــوغاً فى فترات زمنية متقطعة ، فى العقل والعلم والأدب ، فخلدت كتب الأدب والتاريخ ذكر جماعة من فضلياتهن كجليلة البكرية ، والخنســـاء ، وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وعلية ابنة المهدى وولادة بنت المستكفى بالله ، ورابعة العدوية ، وغيرهن ممن كانت لهن مشاركة فى الرأى والأدب ، ومن أرغمن الرجال على احترامهن وتقدير مواهبهن .

وأبرزت النهضة الحاضرة نساء كان لهن ضلع فى نهضة المرأة العربية ، وبلوغها المنزلة التى ظلت ترنو إليها ، والتدليل على جدارتها بهذه المنزلة بالإنتاج الفكرى والأدبى ، والمشاركة فى العنايـة بمعالجة شئون المجتمع ، فمنهن باحثة البادية السيدة ملك حفنى ناصف ، وعائشة

التيمورية ، ومى زيادة ، وابنة الشاطىء ، وسهير القلماوى ، وأمينة السعيد ، ووداد سكاكينى وغيرهن .

٤

أديبات العراق

وفى هذا الكتاب الذى يسرنا أن نقدمه اليوم إلى قراء العربية عموما وعشاق الأدب العربى خصوصاً بعد أن نشرنا فصولا صغيرة منه فى العام الماضى بمجلة العالم العربى [1] عمدنا إلى التعريف بعدد من أديبات العراق ، وكان جل همنا فى هذا التعريف موجها نحو بيان اتجاهاتهن ، وإبراز ماوهبن من شاعرية ، وما منحن من طاقة أدبية ، وإمداد القارىء بمختارات من أدبهن تعينه على الحكم لهن أو عليهن ،

ولا شك أنهن قد أفصحن عن هذه المواهب من زمن قصير لا يحسب له حساب ، وكان تأثرهن الواضح بما يضطرب فى بيئاتهن من حوادث وأحداث ، وفى نفوسهن من آلام وآمال .. وأكثرهن لا يزلن فتيات فى سن الدرس وفى مقتبل العمر والنضج .

وقد لا يجد القارىء فى بعض من عرفنا بهن ما ينشده من التعمق فى الفكرة ، ولا الإشراق فى الأسلوب حين يحفزه لذلك عامل الموازنة بينهن وبين من عبرن من أديبات العرب ، أو بينهن وبين

---

(١) مجلة العالم العربى : ص ٥٧ من العدد ٥ ، وص ٥٥ من العدد ٦ ، وص ٤٨ من العدد ٧ من السنة الأولى

المعاصرين من فحول الشعراء ومحلقيهم ؛ فلا يهولنه ذلك ولا ينزل منه غير منزلته . فما يستصغر هذا الجهد الأدبى على فتيات فى ظروف كالتى ذكرنا ، فأكثرهن لا يزلن فى دور التجربة ، على تفاوت ملحوظ بينهن ، تحتمه ظروفهن وثقافتهن ، وطول معاناتهن للشعر والأدب .

وأعتقد مخلصا أننا حين نستقبل هذا النتاج الأدبى بالحفاوة الجدير بها ، فإنما نأخذ بأيديهن ليتابعن مابدأن ، بعد أن تستوى ملكاتهن فيتخذن مجالسهن الجديرة بهن ، ويحلقن فى سماء الشعر والأدب ، ويعدن لها بهجتها ورواءها ، التى رأيناها لأخواتهن فى الأيام السالفة ، وفى ذلك كسب كبير للأدب العربى لاشك .

بقيت مسألة أحب أن أشير اليها قبل أن أختم هذه المقدمة ، وربما كان فيها ما يعين الناقد والباحث حين يعرض لدلالة هذا النتاج الأدبى على منشئاته . وصدق تصويره لمشاعرهن ، وإعرابه عن أحاسيسهن وخلجات نفوسهن .

أما فيما يتصل بالفنون العامة فلاشك أنه سيجد الصدق والصراحة والإصالة ، سيجد أنهن عالجن أموراً من صميم المجتمع ، وعالجن الأغراض السياسية شعرا أو نثرا لا يقل براعة عن أدب الرجال . وأما فيما يتصل بتصوير هذا النتاج لعواطف صواحباته ، وشعور منتجاته ، فأغلب الظن أنه لن يجد ذلك ، وإن وجده فسيجده على حالة

ينقصها الوضوح ، ويعوزها الإفصاح عن العاطفة ، والصراحة فى التعبير .

ولا شك عندى أن القارىء سيفطن إلى العذر قبل أن يسرع إلى تسجيل الوزر ، وسيجد هذا العذر فى أن هذا النتاج الأدبى وإذاعته شىء جديد على البيئة التى أنشأته ، فكانت الأديبات المذكورات مضطرات إلى تجنب مزالق التعبير عن الانفعالات الوجدانية والعواطف النفسية التى تجيش بها نفوسهن الشاعرة ، وقد لا تحمد عقبى التصريح بها .

على أن الأديب رجلا كان أم امرأة لايستطيع أحد أن يلزمه اتجاها خاصا ، أو التعبير عن غرض بذاته . . ولايزال بين المرأة العربية وبين صدق التعبير عن عواطفها ومشاعرها مراحل طويلة لها صلتها بالحياة الناهضة والنفوس المتجددة ، وللنهوض قيوده ، وللتجدد حدوده فى عالم الرجال ، بله النساء .

وسيرى القارىء أننى عمدت إلى التعريف الذى يكاد يكون مطلقاً ، ولم ألجأ الى النقد الأدبى — إلا قليلا — لعاملين :

أحدهما أن النصوص التى تهيأ لى الاطلاع عليها قليلة لا تفى بحاجة الناقد ، إذا استثنينا واحدة منهن ، هى الشاعرة نازك الملائكة التى أبرزت المجموعة الأولى من شعرها منذ وقت قريب فى ديوان أسمته « عاشقة الليل » ، فكانت المادة الأدبية التى بين يدى

لا تعين على النقد الحر، ولا شك أن أكمام الشاعرية أمامها سبيل طويل للتفتح والازدهار، ووضوح المعالم، واستواء الملكات. ومن الشطط أن توضع الأحكام قبل استيفاء التراث الأدبى حدوده التى يكون باستيفائها المجال متسعاً للبحث والنقد والتحليل، ويكون الحكم أكثر دقة وأقرب إلى الصواب.

والعامل الثانى: الرغبة عن القسوة فى الأحكام، فنحن فى مجال إشادة وترحيب، لا مجال تعسف وتقييد وتضيق.

فلندعهن يسرن فى الطريق الذى رسمنه لشاعريتهن حتى يوفين على الغاية، وحينئذ يكون لنا أو لغيرنا أن يكمل ما أعرضنا عنه عامدين.

رَبَاب

غادة

أنا من أناس كلهم بدر ولكن عندهم
كرموا ولما يلبسوا لعداتهم جلباب لؤم
فإذا لجأت إليهم تلجأ إلى هضبات شم

ليس بين المتتبعين للحركة القومية والنهضة العربية من يجهل منزلة شاعر العرب المرحوم السيد عبد المحسن الكاظمى فى الرعيل الأول بين أعلام هذه النهضة ودعاة الوحدة العربية ، والوقوف فى وجه أعدائها فى القرن العشرين ، أو يغفل ما أصابه من عسف وعنت ، ونفى وتشريد ، لا لسبب اللهم إلا إيمانه العميق بما كان يدعو إليه . .

والواقفون على طبيعة الشعر من النقاد ومؤرخى الأدب يعترفون له — دون منازع — بسلامة الطبع ، وصفاء القريحة ، والقدرة الفائقة على صوغ الشعر وارتجاله ، فى قوة وطول نفس حتى يوفى على الغاية ، ويستوعب المعنى فى غير ما تعثر يصيبه ، أو كلال يعتريه ، مما يندر أن تقع العين على مثله فى أيامنا .

وأنت إذا عددت الكاظمى فى الطليعة من شعراء العراق فى عصر الانبعاث لم تعد الصواب ، ففيه ولد ، وعلى أرضه نما وترعرع ، ونبتت شاعريته وترعرعت . . . !

وإذا عددته شاعرا مصريا لم تعد الحق ، ولم تجاوز الصواب ، ففى مصر قضى الكاظمى ستة وثلاثين عاما صهرته آلامها ، كما صهرت شعره ، وصبغته بهذا اللون الذى يفيض بالأسى والحنين . . . !

وإذا عددته شاعر الأمة العربية كنت أكثر تحريا للدقة وحفاظا على الصواب !

وما يقال فى الكاظمى يقال فى كريمته الأديبة الشاعرة « رباب » فهى مصرية مولداً ونشأة وحياة ، وأمها الابنة الرابعة للمجاهد التونسى السيد محمود أحمد التونسى ، أحد ضحايا الاستعمار الفرنسى فى تونس ، ولكنها قبل ذلك عراقية أولا وآخراً ، عراقية بأبيها : ثقافته وحياته وشعره ، عراقية بزوجها[1] الذى نشلها من آلام الغربة ، وفقد الولى ، ومتعها بالحياة الجديرة بها ، فكان خير زوج ، وكان خير ولى .

ومولدها فى مصر[2] ، لم تبرحها طوال حياتها ، لم يحل بينها وبين أن تكون شاعرة عراقية ، فيها من العراق حلاوة الطبع ، وصدق الشاعرية وقوة العاطفة ، ورثت هذه الخصائص عن أبيها الذى راد لها السبيل ، وأخذ بيدها . فسارت فى الطريق الذى رسم لها معالمه ، فبدت براعتها منذ حداثتها . وفى الأبيات التالية تتضح بواكير شاعرية ثرة ، فى سذاجة الحداثة وعذوبة الطفولة :

أنا رباب الشاعره إلى الأمام سائره
بالعلم أدرك المنى والجد والمثابره
أجد ، لا أخشى العثا ر يوم غيرى العاثره

---

(١) سعادة الأستاذ الأديب حكمة الجادرجى قنصل المملكة العراقية فى الاسكندرية .
(٢) فى الثانى والعشرين من أغسطس « آب » سنة ١٩١٨

أذود عن كرامتى وعن بلادى الطاهره
من دونها لى أذن تصغى وعين ساهره
بلغت غايات المنى وما بلغت العاشره

ثم تأخذ فى الفخر بشعرها والتمدح بوطنها ونسبها، وهو فخر عربى صميم يجرى فى عروقها ويختلط بدمائها، كما يجرى فى عروق العراقيين، ويختلط بدمائهم :

شاعرة بأننى خير فتاة شاعره
إن سحر القول فإنى بمقالى ساحره
بغداد لى إذا انتمى مجدى ومصر القاهره
إن نسبوا أخلاقنا فهى الرياض الزاهره
أو ذكروا أنسابنا فهى الشموس السافره
إذا مشينا وقفت لعزنا القياصره
وإن بدينا سجدت لنورنا الأكاسره

وما كان لرباب أن تنسى العراق أو تتناساه، وهى خلاصة ما أبقت الأيام لهذا الأب الذى أقصته الأحداث عن العراق مقر عظمته، وموطن أسلافه وثروته، ولا يزال الرجل يحن إلى وطنه حنين الإبل إلى أعطانها، والأسد إلى عرينها، إذ تداولته الأيام فى مصر بين نعيم وشقاء، وبين خصب وجدب، وبين رضا وسخط شأن الأحرار فى كل جيل وفى كل قبيل، وسلواه فى كل شدة ورخاء وحيدته رباب التى يرى شفاءها شفاءه، وحياتها حياته :

« فداء رباب داء قلبي ومهجتي وإن شفاها لو علمت شفائي »
« رجوت بقاها في الأنام وإنما بقاء رباب في الأنام بقائي »[1]

ويقول فيها :

« أعيذ ربابا أن يساورها الضنى وأن تشتكي مما طويت به طبا »
« ولولا رباب ما تركت هوى الربا ولا عفت سعدى الغانيات ولا ريا »
« ولا هجرت عيني كراها ولا لوت ضلوعي برحاء الجوى والأسى ليا »[2]

هذه منزلة رباب من أبيها ، وجدير بها أن تبادله حبا بحب ، وأن تقاسمه بأساء الحياة ، كما قاسمها نعماءها ، وقد ظلت له على ذلك حتى لفظ آخر أنفاسه .

* * *

شجعها والدها على نظم الشعر في أول الأمر ، فلما اشتد ساعدها وقويت شكيمتها ، ورأى أنها قد استوحت غيرته ، واستلهمت حميته ، وقبست جذوته ، وتمادت في إرسال شعرها الحار في السياسة والاجتماع ، انتابه الجزع على تلك التي يحرص عليها حرص الضنين على صبابة العيش ، وخشي أن يصيبها ما أصابه ، فتزيده آلاما إلى آلامه ، وتضيف أحزاناً إلى أحزانه إن هي اندفعت في تيار الحماسة ، وفتنة السياسة ، فأخذ يحد من نشاطها الأدبي لتنصرف عنه الى دراستها .

---

(١) ص ١٤٢ من المجموعة الثانية من ديوان الكاظمي - القاهرة ١٩٤٨

(٢) ص ٩٤٣ المصدر السابق

ورضخت رباب التى أحبت أباها حبا جما لمشيئته وأطاعته ، ولم تمنعها هذه الطاعة أن تستجيب لطبيعتها الشعرية ، فصاغت كثيراً من القصائد فى أغراض مختلفة ناحية نحو أبيها ، مقلدة إياه فى طريقته البدوية ، ولفظه العذب الرصين .

وغير كثير على رباب أن تولى مصر التى نشأت فى ربوعها كثيراً من عنايتها ، وأن تشارك المصريين عواطفهم ومشاعرهم فتعد نفسها واحدة منهم فمصر أمها وسعد زغلول أبوها ، كما تقول فى مرثية للزعيم الخالد :

أبى سعد ومثل أبى قليل ... وأمى مصر فهي به ثكول
يميل هواى بى لأبى وأمي ... وكل هوى بصاحبه يميل

إلى أن تقول :

ولو جاز البديل لقلت إنى ... ومن فوق الثرى منه بديل

ويروعها ما يروع المصريين من انقسام فى الرأى ، وتصدع فى الصفوف ، وميل إلى الهوى ، وتراه علة العلل فيما تكابد مصر من آلام فتقول فى قصيدة أخرى . . . :

ولا تسل فى مصر عما ... فعل الخصام
جنى على البلاد ما ... لم يجنه ظلام
قسا فما كفكف من ... قسوته استرحام
كم وسوست وساوس ... وأوهمت أوهام
وعطلت صحائف ... وحطمت أقلام
وكم مشى إلى البرى ... بيننا اتهام

وظلت وفية لمبادىء سعد ، ترسل الشعر على صفحات الأهرام وكوكب الشرق ، والمساء ، وغيرها من الصحف اليومية والمجلات الأدبية ، التى كانت مسرحا لأفكارها ، ومنفذا لآرائها .

وكانت لها ثورات أغضبت عليها بعض رجال الحكم فى بعض الفترات ، فهددوها بالحرمان من التعلم إذا هى عاودت الكتابة فى أمثال تلك الموضوعات ، أو نقد رجال الحكومة ، فلم ترضخ الفتاة الشاعرة أن تهادن الطغاة ، وما هادنوا أباها وأنداده من دعاة الحق والصلاح ، فهددوها بالنفى والتشريد هى ووالدها الشيخ العليل .

وهنا سنحت الفرصة لهذا الوالد للتأثير عليها ، وكفها عن التمادى فى هذا العنف ، فأكبت على دراستها ، حرصاً على أبيها واستدامة لحبه وعطفه ، وإبقاء على حياته ، فصارت تنظم الشعر فى أغراض اجتماعية ، كقصيدتها عندما هزها التبرع الكريم من السيد عبد الرحيم الدمرداش باشا بمائة ألف من الجنيهات ، وقطعة من الأرض لإنشاء مستشفى فقالت :

يهنيك جودك يامن جدت بالمال ... فمثل جودك لم يخطر على بال
ياواهب المائة الآلاف التي نزلت ... على القبيل نزول الغيث والآل
وهبت قومك مما تكتسى هبة ... جديد صنعك فيها ليس بالبالى
أوليتهم منة غراء خالدة ... لا أول الجود يحكيها ولا التالى
أعظم بها هبة فى الدهر تحسبها ... فريدة سطعت فى جيده الخالى
أطلق بها كل مضنى بات ليلته ... من الضنى بين أصفاد وأغلال

وتشيد بعمله الإنسانى المجدى ، وبعده عن السياسة وصخبها وقيلها وقالها ، وتوازن موازنة عابرة بين جد العمل منه ، وبين هزل القول من غيره :

سس القلوب بما يشفى القلوب ودع ... ذوى السياسة في قيل وفى قال
واصل فعالك واترك من يقول بلا ... فعل فكم بين قوال وفعال !
هل يقتدى بك من باتت خزائنه ... رهن المنيعين من باب وأقفال ؟

وهكذا ظلت رباب ترسل شعرها الرصين فى أمثال ذلك الغرض الاجتماعى الذى لا يزعج أحداً من رجال الحكم وأرباب الصولة، وهى تنزع هذا المنزع استجابة لأبيها الذى خشى على ابنته كيد أعداء الحرية الذين أسلفوا له الذل والهوان ، بما أسلف فى سبيل حرية الأوطان !

وتنزل الأيام ضرباتها ، وتوالى محنها على هذا الأب الشيخ ، فتعتوره الأسقام ، وتنتابه العلل وتضطره أن يلزم داره ، فلا أحد يحنو عليه ، ولا من يعينه على حرب المرض وحرب الأيام فيستعصى العلاج ، ويعز ثمن الدواء، فيئن فى جنح الظلام ، ولا يجد هذا الأنين صداه إلا فى صدر ابنته الوالهة الحزينة التى تلجأ إلى اليراع ، فيستجيب لها شيطان الشعر ، ويعنو لها سلطانه ، فيتدفق على أسلة قلمها هذا الشعر الأصيل ، الذى ينم عن طبع وتمكن فى هذه القصيدة التى تبلغ أبياتها مائة بيت ، والتى أرسلتها إلى عمها الذى كان يقيم فى القاهرة يومئذ

شكاة مرة على لسانها ، تعبر عن آلام أبيها المريض :

أدبى لدى الأيام جرمى وجريرتى فى الدهر علمى
أظما ولا أحظى بغير موارد فى الناس تصمى
أصغى إلى زمنى وطيـ ب كلامه حرقات كلم
غودرت بين حقيقة حيرانة أمشى ووهم
وبقيت مابقيت يد بقيت بها آثار وشم

وقد نشرت هذه القصيدة العامرة فى مصر كما نشرت فى صحف العالم العربى ، فكان لها صدى بعيد ، وامتلأت صدور الناس حزنا وأسى على ما يكابد السيد عبد المحسن الذى أذاب شبابه فى الذب عن قومه ، والذود عن وطنه من كيد الأيام .

قرأ الناس هذه القصيدة فأعجبتهم حلاوة نظمها ، وسحرتهم جودة معانيها ، وتدفق الشاعرية فيها ، فاستكثروا هذه الجودة على فتاة فى مثل سن رباب ، وزعم قوم منهم أن هذه القصيدة ونظائرها من شعر السيد عبد المحسن الكاظمى نفسه نحلها ابنته ، وهم - كما يبدو - فى زعمهم هذا معذورون !

ولكن الواقفين على صفاء الطبع العراقى ، وجودة الاستعداد لا يستكثرون هذه الآيات على فتاة عراقية ، أضافت إلى استعدادها الموهوب وشاعريتها الموروثة أخذ أبيها بيدها ، ولرباب نظائر حلقن فى سماء الشعر والأدب ، وإن لم يتح لبعضهن بعض ما أتيح لرباب !

ولها فى مثل الغرض السابق مدحة واستعطاف تقدمت بها إلى جلالة الملك الهاشمى عبد الله بن الحسين ، وهى تفصح عن الظروف التى أملتها ، فى أيام حاجة أبيها وعلته ، وللسيد عبد المحسن كثير من القصائد رفعها إلى الملك العربى الهاشمى ، ومن قصيدة رباب :

يا غيث هل من قطرة من جودك الهطال ؟
يا بحر هل لؤاؤة من تلكم اللآلى ؟
تذهب فى الأعناق لا طواق والأغلال
يا ابن النبي نظرة تعيد لى اختيالى
قد عطش الروض لجد يا غيث بالهمال
مكثى على مستخ لص الولاء وانتقالى

وظلت رباب تقرض الشعر الكثير ، لا تنشر منه إلا القليل ، إلى أن أربى ما نظمت منه على الألفين من الأبيات . وتتوالى الليالى والأيام وتشتد على أبيها وطأة المرض ، ويخشى على وحيدته أن تظل فى مفترق الطرق بدون توجيه أو إرشاد ، فيأكلها الزمن كما أكل غيرها من ذوى المواهب ، فيدعوها إليه ، ويسر إليها وصيته الأخيرة . « عدينى يارباب وأنا على أبواب الأبدية ألا تقربى الشعر إلا بعد حصولك على إجازة علمية حتى لا يكون نصيبك الحرمان والعالى كأبيك . . . » !

وهى الآن تجد فى تحصيل تلك الإجازة ، ولعلها بعد الظفر بأملها ترجع إلى ما جبلت عليه من الهيام بالشعر والأدب .

المختار من شعرها

صفية زغلول

صفيتنا اصطفاك الشعب أماً ... تعادله وليس له عديل
صفيتنا إذا أشبهت سعداً ... فإنكما الجليلة والجليل
لأنت اليوم من ميراث سعد ... ومن ميراثه الصنع الجميل
بقيت لنا بقاء المجد فينا ... وعمر المجد فى مصر طويل
وجاهك مثل جاه الشمس لكن ... يضيء وليس تحجبه السدول
وحدك مثل حد السيف لكن ... يغل وليس يعروه فلول

أنا . . . وأبى

أما أبى فلقد أبى ... عند القوافى غير حكمى
لم يأل جهداً سعيه ... فمن المهم إلى الأهم
ويظل فى حل الأخـ ... ـص من المشاكل والأعم
يبكى على أوطانه ... وينوح فى نثر ونظم
فى أضلع تذكو جوى ... أو أدمع فى الوجد سجم
يقضى الليالى حائراً ... ما بين إفلاس وسقم
يلقى حوادثها بخيـ ... ـل من عزائمه ولجم
أحشاؤه وجفونه ... عرض لما يقذى ويدمى
لاتهتدى أقلامه ... بما ألم به لرقم

وكأنه والوجد يأ ... خذ منه فى لجات يم
وكأنه فى يومه ... فى جنح ليل مدلهم
وإذا فررت إلى حما ... ه فررت من همى لهمى . . !
أكلتنى الأيام لو ... معداتها تستطيع هضمى
وطوت بها اسم العلا ... لو كان يطوى مثل اسمى

نخر بالعروبة

لنا العلا آمنة ... من عبث الزوال
لنا الوجوه المشرقا ... ت فى دجى القسطال
لنا الجياد القب من ... جار ومن جوال
لنا السيوف البيض لا ... تخاف من كلال
لنا القنا مطرابة ... والخيل فى تصهال
تضرب فى الصدور أو ... يطعن فى الأكفال
إنا أناس خلقوا ... للذود والنضال
نذب عن أوطاننا ... بالقول والفعال
وليس منا دونها ... بالنفس من بخال
من يشتر المجد له ... أرخص كل غال . !
إن لم نصل ذرا الحمى ... بعزمنا الصوال
ولم تكن نفوسنا ... دريئة النصال
ولم تسل دماؤنا ... سيلا على الرمال
ولم نذر ديارهم ... طوامس الأطلال
ولم نجر أوطاننا ... من جائر ختال
لسنا إذن بناتكم ... يا خيرة الرجال

أم زمزم

غادة

كيف أسلو وللسكون شبوح مرعبات وللدجى أوهام
وحـــوالى عالم يتنزى فى أضاليله فلا يلتام
وحيالى من اشتباك المآسى غمم جد جدها وضرام
وفؤادى أبلتـه أحلامه الرو ع فأودت بسعده الآلام

إلى سنة ١٩٣٦ لم يكن أحد يعرف شيئا قل أو كثر عن شاعرية أم نزار، حتى أولئك الذين يعاشرونها ويحيون معها تحت سقف واحد، فإن شاعريتها لم تبح بمكنوناتها إلا فى تلك السنة حين استلت يد المنون فجأة شاعر العراق الحكيم جميل صدقى الزهاوى، ورأت أم نزار — التى لم تكن ولم يكن أحد يعلم الى ذلك الحين أنها شاعرة — أن رياض الأدب قد سكنت بلابلها عن التغريد، وأن أودية الشعر قد أقفرت من راعيها، وهكذا كان تقديرها للزهاوى وشاعريته يفوق تقديرها ونظرتها إلى كل شاعر فى العالم العربى، وبرز تأثرها لوفاته، وأحست رغبة ملحة فى تسجيل انفعالها لهذا الخطب الذى منى به شعورها.

وإذا هى ترى نفسها تلجأ إلى القلم تبثه شكاتها، لعلها تجد فيه مسعفا يطفىء حرارة وجدها، ويشفى تبريح جواها، فخطت أناملها أبياتا منها:

أجهش الشعر باكيا ينعاكا ... حين داعى الموت الزؤام دعاكا
وبكاك الشعب العراقي حزناً ... مذ رأى منك خاليا مغناكا
يامعيداً للشرق مجـــداً تليداً ... كاد ينسى اذكاره لولاكا
يامشيداً للفظ يعـــرب صرحاً ... جاز في رفعة المقام السماكا

ومنها تشير إلى رباعياته ، ونصرته للمرأة ودعوته الحرة الجريئة إلى تحريرها :

من لليلى ؟ وكنت ناصر ليلى ما عهدناك ناسياً ليـلاكا
كنت حتى الجماد توحى إليه حين تشدو ، الشعور والإدراكا

ومنهـا تذكر سطوة الموت ، واغتياله أعلام الفكر والأدب والوطنية :

إيه يا دهر كم نشرت شبـاكا لاصطياد الكرام شلت يداكا
كل يوم تودى بشاعر قوم ناصباً لاصطـــيادهم أشراكا

وتناجى الزهاوى :

أيها الراحل الذى اختار دار الخـ لد مأوى نم وليطب مأواكا
إن قبراً حللت فيه مقيما قد حوى الشعر والنهى مذ حواكا

هذه هى أولى القصائد التى تفجرت بها ينابيع شاعريتهـــا ، وافتتحت بها حياتها الشعرية منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد لقيت هذه القصيدة إعجابا من عشيرتها ، ورحبت مجلة « الصبح » التى كانت تصدر إذ ذاك بإذاعة هذا الرثاء لأول شاعرة فى العراق فنشرته .

وقد شجعها هذا النشر وما رأت من إعجاب القوم على موالاة قرض الشعر ، وإذاعته حتى اجتمعت لديها طائفة صالحة منه ، نشر بعضها فى صحف العراق .

وأم نزار هى السيدة سلمى بنت عبد الرازق الكاظمية، من عشيرة عربية تنتهى إلى المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وقد ظلت الأسرة التى تنتمى إليهـا تقيم فى الحيرة حتى أواخر القرن الثامن الهجرى ، فانتقلت إلى الكاظمية من أرباض بغداد .

وفى القرن الماضى انتقل جد الشاعرة إلى بغداد إلى دار تجـاور الدار التى كان يسكنها الشاعر العراقى الكبير « عبد الباقى العمرى » ويقال إن هذا الشاعر هو الذى أطلق على هذه الأسرة لقب «الملائكة» فغلب على لقبها الأصلى ، وفى هذه الدار ولدت الشاعرة سنة ١٩٠٨م وتزوجت فى سن مبكرة من ابن عمها الأستاذ الشاعر « السيد صادق الملائكة » ورزقت منه بنين وبنات ألمعهن الشاعرة المبدعة « نازك » التى سنذكرها فيما بعد ، وتكنى باسم أكبر أبنائها « نزار » .

ذاقت أم نزار مرارة اليتم منـذ أخذت تستقبل الحياة فى الرابعة من عمرها فتعاون على تربيتها ورعايتها أمها وذوو قرباها .

ولم تكد تجيد القراءة على يد مدرستها الخاصة ، حتى أقبلت على قراءة القصص الأدبى والشعر وتذوقه ، ولا سيما شعر العذريين ، والجاهليين ، وقصائد الأندلسيين وموشحاتهم ، فرويت من نبعه ، وقرأت تاريخ العرب القدامى ، وجانباً من السيرة النبوية ، وسير الصحابة .

كان الشاعر الحكيم جميل صدقى الزهاوى قد تألق نجمه وطار ذكره ، فافتتنت أم نزار برباعياته ، وقصائده الغنائيـة ، وأحبت فيه طبيعته الحرة ، ونظرته المحررة إلى المرأة والحياة والأدب ، فحفظت من شعره كثيراً ، وتغنت به .

وعلى هذا فإن ثقافة أم نزار ومطالعاتها عربية خالصة إذا استثنينا قليلا من الفارسية ليس له أثر ما فى طبيعتها أو طبيعة شعرها .

وإلى جانب هذا الولوع بالشعر والأدب استعداد ومواهب أدبية ورثتها عن آبائها وأجدادها ، وأخذ بيدها زوجها الشاعر الأديب الذى شجع مواهبها كما فعل بأبنائه وبناته .

* * *

إن شعر أم نزار يمثل أبرز صفاتها ، وهو الطموح الذى يبرز فى مختلف نواحى حياتها ، وفى تربية أبنائها وبناتها ، وفى شعورها الوطنى ، وقد يصطدم هذا الطموح بعقبات البيئة المحافظة ، والمقاييس التقليدية التى لا تزال تسيطر على المرأة العراقية وطريقة حياتها ، وأسلوب تفكيرها ، فتسجل فى شعرها ما تكابد من أسى لحيلولة الزمن بينها ، وبين آثار هذا الطموح وثمراته :

فإلام يا قلبى الطموح تهيم فى ... وديان أفكار تذيق العلقما ؟
لا أنت تترك ما تروم ولا أنا ... أرضى بأن أصغى إليك فأسلما !
جاوزت يا قلبى الحدود ، ألم يحن ... لك أن تكف عن الطموح وتسأما ؟

وقد يستحيل الطموح المكبوت فى قرارة نفسها ثورة عنيفة ، فتفيض شاعريتها بشعر حماسى صاخب ، وقد تصل بها هذه الثورة وتلك الحماسة إلى حد التهديد والوعيد بغضبتها ، فتزعم أن الدهر يضطر إلى الاستجابة لدعوتها !

إن لى غضبـــة يثوب لها الدهـ ـر ويأتى بحنحه المكسور
خاضعاً ناكصاً يسير رويداً مستعيناً بقيـــده المجرور
وإذا ما ثأرت يوماً لنفسى أو لقومى ووترى الموتور
جئت بالهول من فعال جسام تدع الخصم فى لظى وسعير

* * *

كان للخطوب الجسام التى نزلت بالشرق والعـــروبة ، صداها فى نفس أم نزار كما كان لها صدى فى نفس غيرها من شعراء العرب وشواعرهم ، وأظهر هذه الخطوب فى أيامنـــا ، وأبرزها فى تاريخنا المعاصر رزء فلسطين ، وما منى به هذا البلد العربى من جراء الاستعمار الغاشم ، الذى أنشب أظفاره فى هذه الرقعة من البلاد العربية ومن جرائم هذه الشرذمة من الصهيونيين الأفاقين الذين منوا أنفسهم ومناهم الخادعون المخدوعون بتبوؤ هذه الديار العربية ، واجلاء أهلها فتوالى جهاد العرب وكفاحهم فى سبيل الحفاظ على البلد العربى المقدس ، وتراث العروبة المجيد فيه .

ولقد كانت صيحات الشعراء لإنقـاذ العرب فى شتى بلادهم ،

لها أثرها فى تكوين رأى عربى عام وفى جمع العرب وتعاونهم على نجدة إخوانهم أبناء فلسطين ، وتخليصهم من العداة والغاصبين ، فاستحال الشعور حربا شعواء وقراعاً بالسيف والسنان ، بعد الحجة والبيان .

ولأم نزار فى فلسطين قصائد عدة ، هاك نموذجا من إحداها :

حادث فيه للعروبة ذل ... بعد عز قد طاول الأحقابا
أفترضى الليوث أن يطأ الغا ... ب عدو فيستبيح الغابا ؟
أفتقضى أشبال من ملكوا الأر ... ض وهزوا العروش والأقطابا ؟
لا ! وحق الأوطان لن يسكنوها ... عنوة إن سعيهم قد خابا !
لن ينالوا من أرضنا قيد شبر ... أو تذوق العرب الحمام شرابا

وهاك من قصيدة غيرها تبلغ زهاء مائة بيت ، وهى تفيض بالذكريات الخالدة ، والعاطفة المتأججة ، وحب العروبة المشبوبة بين جوانحها ، استمع إليها تناجى نفسها :

رددى نغمة العلا والخلود ... فى ديار الإسراء أرض الجدود
رددى للبقاء لحن الأمانى ... أنت أولى الشادين بالتغريد
رجعي نغمة لقد طالما سر ... نا على وقعها لفتح جديد
وقعيها فخورة نغمات ... منعشات تفوق عزف العود
نغمات كأنها لاسانا ... بلج الصبح بعد ليل مديد

ومنها فى وحدة العرب واجتماعهم على تخليصها من يد الأعداء :

وانثرى أجمل الزهور على تر ب فلسطين موضع التوحيد
وانخرى إذ بنوك فيها تواصوا أن يضنوا بعزك المعهود
أقسموا لا ترى فلسطين ذلا أو تكون الأشلاء ملء البيد

ومنها فى مناجاة الرسول الأعظم :

يا رسول الهدى أجر قدسك الســـامى وأنقذ مسراك من تهديد
فلكم فى ديار مسراك بؤس وشهيد يروح إثر شهيد !
وانصباب العذاب يا منقذ العر ب رمى العرب فى شقاء مبيد
خرقت حرمة البراق ، وريعت بجيوش من كل عات مريد
واستحالت أرض السلام ميا دين حروب بين الهدى واليهود

* * *

ومن الطبيعى أن تعير شاعرة صافية النفس ، مرهفة الحس ، كأم نزار بنات جنسها جانباً من عنايتها ، فدعت المرأة العربية إلى الكفاح فى سبيل حياة حرة ، تخدم فيها نفسها وقومها ، وتنفض عن كاهلها غبار العصور المظلمة ، فتكسر القيود ، وتحطم الأغلال . وقد عرفت أن هذا الغرض كان من أثر إعجابها بشخصية الزهاوى وشاعريته .

وقصائدها فى هذا الباب تقع فى قسمين : الأول هو الذى ذكرت فيه المرأة العربية بماضيها المجيد ، وأشادت بها ليكون من هذه الإشادة حث على العمل ، للنهوض مما تردت فيه ، ومن هذا اللون هذه الأبيات :

ذات فضل وعفـــة وجمال وجلال ما بعده من جلال
ذات عزم ورقة واشتياق لاعتناق الهدى ، ووصل المعالى
أحرزت كل سامیات المزايا وخلال الكمال خير الخلال
رجحان فى عقلها لا يضاهي وسمو فى قولهـــا والفعال

والقسم الثانى هو الذى صورت فيه حاضر المرأة العربية ، بين الجهل والزيف ، والعناية بتوافه الأمور ، فتضيق بجمودها ، وسكوتها على الجهل ، وتهالكها على المظاهر الخداعة قالت تخاطب بنات قومها :

رضيتن عـــلى الأسر فهنتن مـــدى العمر
وأمعنتن فى الصبر على غائلة الدهر ..!

متى تعملن الإفلا ت من أسر الشقا العاتى ؟
متى تفخرن بالماضى متى تبسمن للآتي ؟

ألفنا الضعف وارتحنا لبـــلوانا رضيات
فلم نهو من الدنيا سوى ثوب ومرآة

فهيا للهـــدى هيا إلى النهضة كى نحيا
إلى النهضة والعليا لكى نبلغهـــا سعيا

وإلى جانب هذا النتاج الشعرى فى الاجتماعيات والوطنيات ، طائفة من القصائد صـــورت فيها مشاعرها الخاصة ، إزاء الطبيعة والفن والحياة .

تقرأ فى احدى قصائدها « نفسية الغجر » تصويراً منقطع النظير

فى الأدب العربى لأنها تعالج إحدى الحالات النفسية الشاذة ، فتصور الليل ، وبرده القارس ، ورياحه العاتية ، ونجومه اللامعة فى الشتاء ، ثم تصف فتاة نورية ، عضها الفقر ، وآذاها القر ، فلما صادفت داراً تحترق ، لم يرعها هول ما ترى - كما تشعر النفوس الحية - بل ثارت فى نفسها غريزة حب الانتقام ، وسرت فى نفسها نشوة الثأر على يد الطبيعة من أعدائها الناعمين المترفين ، فبدا عليها السرور لما ترى من آثار الدمار ، وأنات المكلومين ، ودنت من اللهيب تصطلى به فرحة هاتفة :

منظر النار فى الشتاء جميل ... وهى من أبرع الهبات السنية
يا هنائى ! فالدفء لى قد تأتى ... فلتدم هذه القلوب صلية !

ولها فى الطبيعة قصائد قليلة ، تصف فيها شعورها نحو ما تراه من مظاهرها ، وإن كانت لا تصف الطبيعة نفسها ، وهذه هى الصفة البارزة فى شعر أم نزار ، فهى قلما تصف الأشياء كما تبدو ، أو كما تحب أن تكون ، وإنما تصفها كما تحس بها ، كما تقول فى قصيدة عنوانها « الزهرة الملهمة » :

يا زهرة أنعشنى ... أريجهـــا المعطر
سحرتنى وإن رو ... حى بالجمال تسحر
آنست قلبى فغدا ... بالقرب منك ينضر
يعل من شهدك عذ ... با أين منه الكوثر ؟
مرفرفا حول الأما ... نى والأمانى تأسر
خفقت الروح إلى ... محرابها تكبر ..
تستقبل الإلهام وه ... و من سماك يقطر

ولعل أم نزار تقدم إلى المطبعة فى وقت قريب ديوان شعرها ، فتسدى بذلك خدمة جليلة للأدب العربى المعاصر ، ومؤرخى نهضته كما فعلت ابنتها « عاشقة الليل » نازك الملائكة .

المختار من شعرها

المذياع الصامت

« أم نزار من المعجبات بأم كلثوم ، وقد توقف المذياع فى أثناء إذاعة إحدى حفلاتها الغنائية ، فأثارها ذلك ، وأوحى إلى شاعريتها هذه القصيدة . . . »

أيها الصامت المعذب روحى ... بعد ما كنت مؤنسى وسميرى
هاج لى صمتك الحزين شجونا ... مبهمات فغاب عنى سرورى
ودهتنى الأوهام تبعث فى الأف ... ـق صنوفا من العذاب المثير
أتأسى بالقرب منك ، لعل القر ... ب شاف من لوعتى وسعيرى
أرهف السمع والفؤاد يناجيـ ... ـك مروعا وأنثنى بالفتور
وأمنى النفس التى فاتها الصبـ ... ـر بلحن من صوتك المسحور
أثقل البحث ساعدى وأضنى الجهـ ... ـد قلبى وكدنى تفكيرى
علنى أستطيع عرفان سر ... غاب عنى فتهت فى ديجور
ليت شعرى ماذا دهاك فآثر ... ت اكتئابى بعد الرضا والحبور
وسجا الليل واعتكر ، وتغنيت بالسـ ... ـهر ، أجهد القلب بالفكر
كيف أسلو وللسكون شبوح ... مرعبات وللدجى أوهام ؟
وحوالى عالم يتـ ... ـنزى فى أضاليـ ... ـله فلا يلتام
تتهاوى فيـ ... ـه النفوس فتنهـ ... ـا ر الأمانى وللمنايا ازدحام

وعلى الأفق حمرة تتراءى ... وعلى الأرض من بقيها ركام
وحيالى من اشتباك المآسى ... غمم جـــد جدها وضرام
وفؤادي أبلته أحلامه الرو ... ع فأودت بسعده الآلام
وسميرى الغريد ماذا دهاه ... فتعـابى ، فمات فيـه الكلام ؟
فتسربلت بالوجوم ومل البشـــــر لحنى ، فخاننى الإلهام
كيف بى لو أطال غريدى الصمـ ... ـت ، وأوفى عليـه داء عقام ؟
وهو نايي ومزهرى * ونديمى ومخـــبرى * بأمانى معشـــرى
صاحب ثابت الولاء وفى ... دون إخلاصه وفاء الصحاب
ثابت الود لا يمين فكم لى ... فى اصطحابيه من هوى ورغاب
ليس ينفك مغدقا حولى البشـ ... ـر مشتاً سآمتى واكتئابى
كم صحارى قطعتهـــا بجناحيـ ... ـه ! وكم جزت عرض طاغى العباب!
والأهازيج ! يا لسحر الأهـا ... زيج ! وإرنان جرسها الخلاب
تتوالى مزامراً وتسابيـ ... ـح ، فتغذو الفؤاد بالإطراب
منهـل سائغ المذاق فرات ... كم روى غلتى ، فراق شرابى !
جف سلسباله الشهى فيا للقلـ ... ـب من لوعة الظما والعذاب !
فأنا بين وحـــدتى * وسكونى ولهفتى * رهن شجو وحيرة !

الفـــــراشة [1]

« الفراشة تولد عندما يولد الربيع ، وتموت عندما يموت الورد . . » (لامرتين)

(من أحدث شعر أم نزار ، وأنضجه ، وأدله على استواء شاعريتها ، ولهذا آثرنا نقل ما استطعنا من هذه التحفة)

وافى الربيـــع يفيض بالحسنى ... فازدان وجه الأرض وافتنا
وكسا الخمائل من غضارته ... بعد الجفاف غـــلالة حسنا
ثوب اخضرار يانع بهـج ... وشى الجنائن فازدهى المغنى

أهلا بمقدمه الجميل فقد ... أحيا الرياض ، وأغدق الحسنا
للحسن فى الأرواح منبثق ... يسنى الحياة ، ويلهم الأمنا
والحسن فنان إذا انبعثت ... أنواره من مهبط المعنى
يوحى الفنون إلى النفوس وفى الـ ... إيحاء روح ينعش الفنا
الفن روض ناضر عبق ... والوحى من أغصانه يجنى
للفن إلهام يحببه ... نغم رفيع كلما رنا
تسمو به الأرواح لابسة ... ثوب السرور وتخلع الحزنا
وهل الفنون سوى الطبيعة فى ... منح الحياة تزخرف الكونا ؟
من وحيها هذا الربيع بدا ... فيه جمال الزهر مفتنا
فالروض حال راقص طرباً ... والموج من أفراحه غنى
هى زهرة راقت نضارتها ... فسمت بها فى الجو منتشره
قبست صفاء الورد إذ رشفت ... نواره فتمايست عطره
وازينت بحلى مزخرفة ... أخذ السنا من حسنها غرره
لم أدر إذ رقت غلائلها ... أهى التى فاقت أم الزهره ؟
كلتاهما زهراء ناضرة ... فتانة بالسحر مؤزره
مرت على الأزهار آونة ... عاشت مغردة بنضرتها
تبدى المباهج فى خمائلها ... والأرض قد غمرت بخضرتها
كالحور فى الأفنان معلنة ... أفراحها نشوى كنشوتها
والدوح قد مالت لها طرباً ... أعناقه ترنو لفتنتها
دنيا بثغر البشر باسمة ... والقلب خفاق لبسمتها
والدهر ياللدهر ! كيف غفا ... عنها ؟ ألم يشعر ببهجتها ؟
عجبا ! أأعشى النور ناظره ... فثوى أم استخذى لروعتها ؟

كلا ! فما للدهر من كبد تهفو فيستهدى بلمحتها !
يقـظان يلغى تارة ويرى حيناً كأفعى عند غفوتها
هو ذلك العاتى ، فكم دثرت كفاه جنـات برمتها !
عطف الطبيعة لا دوام له فالسعد ممـزوج بشقوتها
والجنة الغناء ليس لهـا من منقذ يقـوى لنضرتها
كم راعها صوت النـذير وقد كاد الأسى يودى بهـدأتها
بينا ظلال السعد وارفة والطـير صادحة بنغمتها
هبت سموم الريح محرقة كالنـار قـد عرفت بقسوتها
قطعت صفاء الورد عابثة بجنانه الزهـرا وجـدتها
ورمت بأوراق الزهور على الـ ـغبراء لا تعـنى بحسرتها
أين الفراشة ؟ أين بهجتها أو أنبأت بذبول زهرتها ؟
ياحزنها ، أنى تروق لهـا الد نيا وقد صليت بحرقتها
عهدى بها ولهى بزهرتها أو لم تزل تسعى لجنتها ؟
كلا ! فإن الصبر فارقها فثوت مضرجة بلوعتها
ذرفت على الأزهـار دمعتها فتحرقت بلظى حشاشتها
نشأت مع الأزهار وادعة نشوى فهل تهنا بوحدتها ؟
واستأثرت بجني الزهور فلا عجب إذا ماتت كميتتها
إن الحيـاة صفاؤها كـدر يأنى على مقدار لذتها
تشجى الشغوف بهـا فتصرعه بمزيج شهد من عصارتها
والموت إن عز السلو على الـ ـأرواح يصبح من سعادتها

نزار

عاشقة الليل

تائهة والحيـــاة بحر شاطئه مبعد سحيق
تائهة والظـلام داج والصمت تحت الدجى عميق
يازورقى آه لو رجعنا من قبل أن يخبو البريق !
انظر حواليـك أى نوء تجمد من هوله العروق !

من أسرة الملائكة التى ذكرنا فى كلمتنا السابقة ، وفى أحضان أبوين شاعرين هما الأستاذ « صادق الملائكة » والسيدة « أم نزار » ، نشأت نازك ألمع درة فى جبين الشعر النسوى فى العراق فى العصر الحديث .

ولتفاوت الزمن حسابه فى التفرقة فى النشأة بين نازك وأمها ، فعلى الرغم من نشأتهما تحت سقف واحد ، ووحدة العوامل الخاصة فى تكوين كل منهما ، والتقارب فى العمر بينهما ، إلا أن هناك اختلافا أملاه الفرق الزمنى — مع ضآلته — بين الأم وابنتها ، فإن مولد أم نزار سنة ١٩٠٨ ومولد ابنتها نازك سنة ١٩٢٣ يجعل الفرق بينهما فى العمر خمس عشرة سنة ، وهذه المدة الضئيلة التى لا يحسب لها حساب فى تاريخ الأمم وتربية الملكات تبـــدو واضحة الأثر فى تاريخ النهضة العراقية الحديثة ، فإن البون شاسع بين حال العراق اليوم وحاله منذ ربع قرن ، ولا يكاد العراق يقاس بغيره فى هذا المضمار !

وكان من جراء هذا الخلاف أن أتيحت لنازك فرص لم تتح لأمها ، فقد أنشئت فى العراق مدارس خاصة للبنات ، يلجنها منذ الطفولة حتى نهاية المرحلة الثانوية ، وسمح للفتاة فى الدراسة العالية أن تجلس مع الفتى جنباً لجنب يتلقيان العلم ، ويتجاذبان أطراف الحديث فى فنونه ،

وضاقت الهوة الواسعة، وحطمت الحواجز التى كان يراها الفتى العراقى تحول بينه وبين الفتاة العراقية .

وبعد أن كان التعليم فى مدارس البنات يكاد يكون وقفاً على الإناث ، أصبح يشاركهن فى ذلك عدد من الذكور المختارين ، وكانت الفتاة العراقية من ذوات اليسار قبل ذلك يستحضر لها فى منزلها المدرسات اللاتى يتولين تثقيفها بآثار الثقافة القديمة ، ومن لم تستطع نُميت تعانى إسار الجهل .

وقد اقتحمت نازك ما فتحته الحياة من أبوابها ، وانتفعت بما أتاحته الأيام لمثيلاتها !

ففى مستهل عامها الخامس أدخلت إحدى رياض الأطفال التى كانت الحكومة تشرف عليها وتعنى بها عناية خاصة ، وقد مرت أيام الطفولة الحلوة بذكرياتها الجميلة وسذاجتها العذبة ، ولم تحتفظ شاعرتنا من هذه الذكريات بغير صورة من صور الطفولة فى لهوها الساذج البرىء ، فتبدى حنينها إلى أمسها الذاهب ومجلسها فوق كثبان الرمل التى كانت تعبث بإقامتها :

أعـــبر العمر كله نحو أمسى ويعود الشعور بى للتلال
مجلس فوق تلى الحلو وحدى أو شرودى بين الشذى والظلال

ثم تتمثل تل الطفولة عرشاً ، فمذ انزوى عن عينها لم يلبث أن

عاد « تلا » كما كان ، وكان الأحرى أن تظل صورته كما سجلتها مخيلتها عرشاً ، حتى يبقى له الأثر الذى انطبع ويسلم لها المعنى الذى تريد ، ثم توازن بين حالها الراهنة ، وأمسها الذاهب فتناجى تل الرمال فى شعر عذب دفاق :

إيه تل الرمال ماذا ترى أبقيت لى من مدينة الأحلام ؟
انظر الآن ، هل ترى فى حياتى لمحة غير نشوة الأوهام ؟
آه تل الرمال ! ها أنا مثلما كنت فارجع فردوسى المفقودا !
أى كف أثيمة سلبت رملك هذا جمـــاله المعبودا ؟
كنت عرشى بالأمس ياتلى الرملى ، والآن لم تعد غير تل
كان شدو الطيور رجـــع أناشيدى وكان النعيم يتبع ظلى
كان هـــذا النعيم مملكتى الكبرى ، فياليتنى أعود إليها !
ليت هذى الرمال تسترجع السحر ، وليت الربيع يحنو عليها !

وتحفظ من ذكريات هذه الأيام العذبة الحلوة صديقة اصطفتها وآثرتها من بين أطفال الروضة بحبها ، وإن كانت الأيام فرقت بينهما ، إنها تذكر صديقة طفولتها « كامله » وإن كانت لا تعرف عنها الآن شيئاً غير اسمها وحده [1] :

ومعى الطفـلة الصديقة نبنى فوق وجه الرمال عرش الخيـال
عمرنا قصة ، ولحـــن نغنيـــه ، وقلبان في نقاء الرمال

---

(١) عاشقة الليل : ذكرى مولدى ، ص ١١

وتتساءل فى لوعة عن مصير رفيقة الأمس ، وعما إذا كانت قد نسيت ودادهما القديم ، أم لا يزال شاخصاً خالداً :

أين أصبحت يا رفيقة أمسى ؟ ما الذى قد شهدت فوق الوجود ؟
أترى تذكرين مثـــلى أيا م صبانا ، وحلمنـــا المفقود ؟
أم ترى قد نسيتنى ونسيت الأمـ ـس فى فرحة الشباب الرغيد ؟
أبداً لست أنسى وإن كنـ ـت تهاويت فى الزمان البعيد !

هاتان هما الصورتان اللتان احتفظت بهما نازك من ذكريات حداثتها ، وإحدى هاتين الصورتين كما ترى حسية ، هى صورة التلال التى كانت تلهو بها ، والأخرى معنوية ، هى صورة الصداقة الأولى .

أتمت نازك دراستها الابتدائية ثم الثانوية ، ولحقت بدار المعلمين العالية ، وتعد السنوات التى قضتها فى تلك الدار مرحلة النضج والتزود من الثقافة الناضجة ، فحصلت على إجازتها فى آداب اللغة العربية ، وكانت فى أثنائها تغذى نفسها بالقراءة والاطلاع على الأدب العربى قديمه وحديثه ، كما تمكنت من اللغة نحوها وصرفها وبلاغتها فى الدروس التى كانت تتلقاها ، وفى المكتبة الخاصة التى كان أبوها يعنى بتزويدها بكل مستطرف من العلوم والآداب ، إلى جانب ما تحوى من مراجع فى أصول اللغة والأدب ، وأضافت إلى هذا الزاد العربى معرفة واطلاعاً على آداب اللغة الانجليزية .

وفى هذه المرحلة أيضاً نبتت شخصيتها ، فاستطاعت أن تصوغ

الشعر ، ورأت إعجاباً من المصغين إليها واستحساناً إذا هى ألقت بعض ما تجود به شاعريتها فى مناسبات عارضة ، وتشجيعاً من الصحافة على نشر ما ترسل إليها ، وإذاعته فى قرائها ، فنشرت لها صحف العراق وسورية ومصر ، وكان لهذا صداه فى إرهاف شاعريتها ، وشحذ ملكتها ، ثم كان له أثره فى تقديم ديوان شعرها الأول «عاشقة الليل» إلى المطبعة ، فتلقفه الأدباء معجبين بهذه الباكورة البارعة .

وإذا كان الشعر فناً من الفنون الجميـــلة التى حلقت فيها نازك وبرعت فإن فنوناً أخرى كان لها حظها وأثرها فى حياتها ، فقد شبت وفى نفسها تعلق بالموسيقى ، وهى تجيد العزف على المزهر ، وتقضى أوقات فراغها فى مناجاته ، كما كانت تختلف إلى معهد الفنون الجميلة لتعلم فن الموسيقى ، ومعرفة أصوله ، وتعجب بألحان الموسيقى « تشيكوفسكى » ، وقد أهدت إليه قصيدتها « أنشودة الأبدية »[1] وإعجابها به غير مقتصر على موسيقاه ، بل على شخصيته الإنسانية النبيلة كذلك . كما كان لها مثل هذا الولوع بالرسم والتصوير .

* * *

إن شعر نازك فى مجموعتها الأولى « عاشقة الليل » صورة نفسها ، رسمتها فى هذه القوالب الشعرية !

---

(١) ديوان عاشقة الليل . ص ١٠٩

فإذا قلنا إن « نازك » تتلقى الحياة بتجهم غريب ، فذلك ما نقرؤه فى أكثر قصائد هذا الديوان ، وإذا قلنا إن فيها انقباضاً ملحوظاً ، وأن حياتها تغشيها سحابة من الكمد ، فإن أثر هذا الانقباض عن الحياة ، والحجزة عن الناس ، والصدوف عن مجتمعاتهم بادية ملحوظة فى هذا الديوان التى تستفتحه الشاعرة بهذه الأبيات :

أعـــبر عما تحس حيـــاتى ... وأرسم إحساس روحى الغريب
فأبكى إذا صدمتنى السنين ... بخنـــجرها الأبدى الرهيب
وأضحك مما قضاه الزمان ... على الهيكل الآدمى العجيب
وأغضب حين يداس الشعور ... ويسخر من فوران اللهيب

ولا تزال تتنقل بين قصائد الديوان ، فإذا أنت لا تكاد تجاوز هذه الدائرة التى رسمتها نازك لنفسها ، وصورها الشعر فى هذه الصورة الحائلة القاتمة التى اتشحت بها ، ونقف هنا متسائلين عن علة العلل فى هذا التجهم الغريب فى وجه الحياة ، أو عن « إحساس روحها الغريب ! » كما تقول ، مع أن الشاعرة تستقبل ربيع الحياة فى شباب مزدهر ، ومع ما يحبوها أبواها من البر والعطف والتدليل .

كانت نازك أول عقب لهذين الأبوين ، فأسبغا عليها ضافى حنانهما ، وسابغ حبهما .

والواقع أن هذا البر بها ، وتلك الحفاوة بتربيتها تربية حديثة مستهدفة لاستنكار المجتمع الذى نشأت فيه إذ ذاك ، جعل هذه الشاعرة

تنشأ نزاعة إلى الاستقلال فى تفكيرها ، صادفة عن المجتمع الذى نشأت فيه شديدة الاعتداد برأيها ، اذا اقتنعت هى بصحة هذا الرأى ، فنشأت مرهفة الحس تؤذيها اللفتة ، وتوجعها الإشارة .

وكذلك كانت نشأتها الأولى فى بيت حافل بالسكان من أهل أبويها ، وما يضطرب بين جدرانه من الصخب والضجيج ، كانت هذه النشأة سبباً فى انقباض نفسها ، وميلها إلى العزلة والسكون ، والإخلاد الى كتاب تنظر فيه ، أو مزهر تبثه وتناجيه ، أو شعر تنظمه وتستوحيه

وشاعرة مثل نازك فى مثل ما ذكرنا — وقد ربيت على الدعة — لا بد أن تصطدم مشاعرها بما ترى وما تحس مما لا يطابق نظرتها إلى الحياة ، أو يصطدم مع مثلها العليا .

وثمت سبب آخر من أسباب هذا الانقباض ، هو أن شاعرية نازك ابتدأت تكتمل وتؤتى أكلها فى وقت هزتها أحداث خاصة ، وأحداث عامة ، أصابت الإنسانية ، وقد أدت هذه الأحداث مجتمعة إلى النظرة القاتمة إلى الحياة وما فيها .

أما الأحداث الخاصة التى كان لها هذا الأثر ، فهى أنها قد منيت فى ظروف متقاربة بموت ثلاثة من أعز أقاربها ، فأثر فيها هذا الخطب وليس شىء أدعى الى الفزع من الموت وتذكاره عند من يستقبلون الحياة ، ومن تداعبهم بروق آمالها الخداعة .

وتضنيها الحيرة فى الوقوف على كنه الحياة ، فتثير شاعريتها ، كما أثارت كثيراً من الشعراء والمفكرين ، فتجد فى إزاحة السدول عن مجاهل الحياة ، وأسرار الموت وما بعده ، ومظاهر الكون ، ويعذبها الشوق الى المعرفة :

تائهة والحيـــاة بحر شاطئه مبعد سحيق
تائهة والظلام داج والصمت تحت الدجى عميق
يازورقي آه لو رجعنا من قبل أن يخبو البريق !
انظر حواليـــك أى نوء تجمد من هوله العروق

* * *

ماذا وراء الحياة ماذا أى غموض وأى سر ؟
وفيم جئنا ؟ وكيف نمضى ؟ يازورقى ، أم لأى بحر ؟
يدفعك الموج كل يوم أين ترى غاية المقر ؟
أجرى كما ترسم المقاديـــر لى إلى حيث لست أدرى !

هذا أثر الموت فى نفسها ، وأثر الغموض الذى تحاول أن تزيله ، وأن تزيح سدوله ، وهو أثر يبعد جداً فى اليأس ، حتى أنهـا لتؤثر بل تتمنى أن لو رجع بها زورقها ، كما رأيت قبل أن تصدمه الأنواء وتدفعه الأمواج !

ومن هذه الأحداث الخاصة تصدع الدار القديمة التى قضت فيها نازك سنوات طفولتها . . . الدار التى غادرتها حيـــنما بلغت الثامنة من العمر ، ولـكنها ظلت تحمل لها فى قلبها أعمق الذكريات .

وفى هذا الحين روع العالم أجمع بالحرب الطاحنة التى كانت أخبار هولها تغشى العالم ، فتذيب القلوب وتفتت الأكباد ، قلوب أكثر الناس قسوة ! فما بالك بوقع هذه الخطوب فى نفس فتاة ناعمة وادعة، لها عاطفتها المشبوبة ، وإحساسها المرهف ؟

هذه الأحداث مجتمعة هى التى صبغت « نازك » وشعرها بهذا اللون القاتم الحزين، وهى أحداث تنتهى آثارها بانتهاء أسبابها ، ولكن العجيب أن تزول هذه الغمرات ، وتنقشع السحب ، ولا يزال لها الأثر البعيد ، والصدى العميق فى إحساسها ومشاعرها .

وبقاء هذه الآثار يؤيد أن فى طبيعة نازك هذا الاستعداد العجيب للألم ، فهى لا ترى فى الوجود شيئاً يمكن أن ينيلها السعادة التى تحلم بها ، فتغرق فى التشاؤم ، وتسرف فى السخط . وهى تحس إنكار الناس لهذا الإغراق فى السخط :

قد وصفت الشقاء فى شعرى البا ... كى وصورت أنفس الأشقياء
وشدوت الحياة لحناً كئيباً ... ليس فى ليله شعاع ضياء !

فأثارت كآبتى عجب النا ... س ، وحاروا فى سرها المجهول
مادروا أننى أنوح على ما ... سأتهم فى ظلامها المسدول !

ثم تهزأ من الإنسان يشعل نار الحرب على أخيه الإنسان ، وهو يظن أنه يحقق بهذه الحرب أحلامه فى السعادة ، وليس يكسب

فى النهاية غير الحسرة والألم ، وهيهات أن تمكنه الحياة من السعادة التى منى نفسه بها :

فيم هذا الصراع يأيهـــا الاحيا ـــ ء ؟ فيم القتال ؟ فيم الدماء ؟
فيم راح الشبـان فى زهرة العم ـــر ضحايا ؟ وفيم هذا العداء ؟

أهو حب الثراء ؟ ياعجب القلـ ـــب ! وما قيمة الـــثراء الفانى ؟
فى غد رحلة ! فهل يدفع الأموا ـــت بالمـــال وحشة الأكفان ؟

انظروا . ها هنا على الشوك والرم ـــل ثوى الأغنياء والمعدمونا
أى فرق ترى ؟ وهل غير صمت المو ـــت فـــوق القبور والراقدينا ؟

نشوة النصر ؟ يالسخرية الألفـا ظ ! يا للأوهام ! يا للضلال !
أيها الواهمون حسبكم وهما وهبوا من الكرى والخيـــال

نحن أسرى يقودنا القدر الأعـ ـــمى إلى ليـــل عالم مجهول
ليس منا من يستطيع فكاكا ليس منا غـير الأسير الذليل

هـكذا المـوت غالب أبد الده ـــر ، ونحن الصرعى الضعاف الحيارى
وله النصر والفخار علينـــا فاندبوا ما دعوتموه انتصاراً ..

وتتلفت نازك نحو المجتمع الإنسانى الذى يحيط بهـا ، لعله يحيى فى نفسها شيئاً من الأمل ، ولـكن هذا المجتمع كما تراه لا يستجيب لها ، وما يزال سادراً فى تخبطه ، مستخفاً بالمثل العليا ، وهيهات له أن يفيق من سكرته .

أو لعل نواميس الحياة التى تهب الحيـاة فيحس الإنسان بها ثم سرعان ما تسلب ما وهبت ، هى التى أوجدت هذا اللون الغالب من فلسفة الألم عند نازك . . وليست الحياة إلا آمالا ، ويأتى الموت ، فيقضى على هذه الآمال ، وليس ما يشحذها وما يحييها ، وليس ما يرضى الطموح ، فتستعجل شاعرتنا النهاية ، وتهزأ من أمانى الإنسان ومطامحه ، وهو رهن بالموت يدعوه متى شاء !

وهى تذكر أنها أصيبت بحمى شديدة ملأت نفسها ضجراً ، ولم تستطع وهى فى هذه الحالة أن تقاوم شعور التشاؤم واليأس الذى طغى عليها ، وتذكر مرة أخرى أنهـا رأت شبح الموت فى منامها ، فأقض عليها مضجعها ، بل أقض عليها حياتها :

أى معنى لطموحى ورجـــائى ... شهد الموت بضعفى البشرى
ليس فى الأرض لحزنى من عزاء ... فاحـــتدام الشر طبع الآدمى
مثلى العليـا وحلمى وسمـــائى ... كلها أوهـــام قلب شاعرى
هـكذا قالوا فما معنى بقائى ؟ ... رحمة الأقدار بالقلب الشقى !

وقد تقرأ هذه الأبيات فيما تقرأ من الشعر الحزين الذى فاض به الديوان :

كم فى سكون الليل تحت الظلام ... رجعت للـــاضى . . وأيامه
أبحث عن حبى بين الركام ... فـلم تصدنى غـــير آلامه

لم يبق شىء غـــير حزنى المرير ... بقية من حبى الذاهب
وذكريات من صباى الغرير ... ساخرة من وجهى الشـــاحب

فتقف لتتحسس هذه الذكريات . . ما هى؟ وهذا الماضى ما كنهه؟ ولكن سؤالا قد يضطرب فى خاطرك عن هذه الآلام الجارفة فى حياة فتاة فى منتصف العقد الثالث كيف غشتها هذه الظلمات ؟ ثم هل قضى كل أمل فى تناسى هذه الآلام . ؟

لا شك أنك تعجب ولن ترى جواباً غير ما تجد من آثار حدة المزاج ، وثورة العاطفة :

لم يبق إلا ثورة واحتقار ... ملء حياتى المرة الحـــالمة
النـــار ذابت وتبقى الشرار ... تشربه أحـــلامى الواهمة

وغاية ما نستطيع من القول فى هـذا اللون أنها الحيرة فى حل ألغاز الكون وفك طلاسمه ومعمياته والموت والحياة :

ضاق ياصياد فى عينى الوجود ... بالـــكون سره لا ينجلى
كل ما فيه إلى القـــبر يقود ... ما الذى يبقى لنـا من أمل ؟

وقد تعجب إذ تقرأ هذه الأبيات بل هذه القصائد التى تفيض حزناً وأسى ، وتقرأ فيها صورة اليأس من الحياة ماثلة جاثمة ، ثم تقع عينك على هذا الشعر الذى ينم عن الثورة ، ويفصح عن التمرد :

وقفت أمام الشمس صارخة بهـا ... ياشمس مثلك قلـــبى المتمرد
قلبى الذى جاز الحياة طموحه ... وعيابه الماضى ، وضاق به الغد
مهلا ولا يخدعك حزن ثائر ... فى مقلتى ودمعة تتنهد
فالحزن صورة ثورتى وتمردى ... تحت الليـالى والألوهة تشهد

إن الشمس رمز الحرارة والدفء ، ورمز الإشراق والنور . . . إنها رمز الحياة وصورة الخلود الدنيوى ، وما كان لها أن تقاس بالقبور والظلام والموت .

وما كان لليأس والقنوط أن يحيا مع الثورة ، ويلتقى بالتمرد اللهم إلا أن تكون الشاعرة قد أحست بالنفور مما دأبت عليه شاعريتها ، وما طبعت به شخصيتها .

أجل ! إن هذه الألوان القاتمة ، وهذه الآلام العارمة ، لتجد متنفساً فى بعض القصائد ، فتجد شاعرة أخرى محبة للخلود ، محبة للحياة ، حريصة عليها ، جازعة من الموت إذ أبصرت نفسها بين فكيه [1] :

هأنا . . بين فكى الموت . . قلبا لم يزل راعشا . . بحب الحياة !
وعيونا ظمأى إلى متع الكون . . . تناجى مفاتن الأمسيات
لم أزل برعماً . . على غصن الدهر . . جديد الأحلام والأمنيات
فحرام ياموت أن تدفن الآن شبابى . . فى عالم الأموات

وهى جد مشفقة على نفسها من هول المصـــير الذى انتهى إليه غيرها ، فتتساءل فى ألم ممض عن مصيرها ، أيكون مصير أولئك الذين طواهم الزمن ، ولفتهم القبور ، فغدوا ذكرى بعد أن كانوا حقائق ماثلة ؟

وأنا يا حياة . . ماذا سألقى ؟ هل سأغدو لفظاً جفته المعانى ؟
هل ستطوينى الليـــالى وتلقى . . فوق عمرى . . دياجر النسيان ؟
وغدا يطفىء الزمان سراجى . . ويضيع الردى صدى ألحانى ؟

(١) ديوان عاشقة الليل : بين فكى الموت . ص ٢٥

ثم أغدو بين التماثيل تمثالا . . ؟ وأمحى من الوجود الفانى ؟
آه لا ! . لا أريد ! . فلترحم الأيام دمعى وشقوتى واكتئابى
وليكن من لحنى الحزين صدى باق . . بسمع السنين والأحقاب
رحمة ! . لاتكن دموعى الدفوقات رثاء مبـــكراً . . لشبابى
وليسجل على ضريحى مايبقى حياتى . . وإن أكن فى التراب ! [1]

إن هذا الذى أنكرناه ، وأنكره الناس من نازك ، وأشفقنا على شبابها الغض من التمادى فيه ، لم تكن شاعرتنا أقل إنكاراً له ، وإشفاقا على نفسها من جرائره وهذا حنينها إلى السعادة ، فى قصيدتها ، « أشواق وأحزان »[2] تأكيد لهذا الذى أسلفنا ، وإشعار بتطلع الشاعرة إلى حياة جديدة فيها كثير من الصراحة ، وكثير من الحرية التى تتيح لها أن تقول ما تشاء كما تشاء ، وفى الأبيات التالية تصرح بوجدها على ما مر من أيامها بين الأشواق والأحزان :

كيف مرت أيامنا ؟ كيف مرت . بين فك الأشواق والاحزان ؟
ملء قلبى وقلبك الحب والشوق . . ولكن نلوذ بالكتمان !
كلما حدثتك عيناى عن حبى . . أعاقب عينى بالحرمان !
كيف يا شاعرى كتمنا ؟ . . . ولم يعص كيوبيد قبلنا عاشقان ؟

ثم تبدى ضيقها بالكتمان ، وبالكبرياء التى تتصنعها فتخفى وراءها حقيقة شعورها :

---

(١) ديوان عاشقة الليل : التماثيل . ص ٧٤ .

(٢) ديوان عاشقة الليل : ص ٦٣

يا نشيدى .. متى ستأتيك ألحانى .. فتصغى إلى هتافات حبى ؟!
فيم أقضى الأيام أكتم أشواقى .. وقد ضاق بالعواطف قلبى ؟
أبداً نلتقى فأعرض حيرى .. ولقلبى الكئيب أشواق صب ..
إنها الكبرياء .. تملك الروح .. فيبدو المحب غير محب

هذه قصيدة من أصدق قصائد الشاعرة على صدق شعورها ، وحقيقة حسها .

ولعلك إن قرأت هذه الأبيات وتدبرتها ، تقرنى على أن تغييراً يسيراً إذا أجرى فيها ، جعل الكلام واضحاً مستقيما ، من حيث الوزن الشعرى ، وكان معناه أكثر جودة ، وأصدق تعبيراً ، وأكبر الظن أن شاعرتنا قد صاغته على الوجه الذى نزعم أو نقترح ، ثم حال التردد ومراعاة الدقة فى الألفاظ ، وحساب البيئة ، حال ذلك بينها ، وبين ماتريد !

إنها كلمة يسيرة تفتح بعض هذه المغالق ، وتحل شيئاً من المشاكل التى تواجه من يدرس شعر نازك .

إن كلمة « يا حبيبى » بدل « يا نشيدى » ! تجعل مطلع البيت ملتئما مع آخره ، فيكون صدق التعبير دليلا على صدق الشعور ، أعتقد أن نازكا تقرنا على هذا التغيير اليسير ، وما أعتقد أن عليها شيئاً فى هذا الإقرار ، فإن سياق القصيدة يرضاه ، بل يتطلبه ويتمناه !

« ويبدو لنا من بعض تعابيرها ومن الروح السارية فى شعرها

أنها متأثرة بشعراء الكآبة مثل الشاعر «كيتس» الأنجليزى، على أن براعتها ظاهرة فى الطريقة التى انتهجتها، ولعل هذه الطريقة أكثر موافقة لنفسيتها، ومزاجها وظروفها، ففى كل صفحات الديوان، وهى تبلغ المائة والأربعين لا تجد بسمة رجاء، ولا تسمع ترجيع أمل بل شكوى مريرة، ونقمة طاغية على الحياة وعلى البشر وعلى ذاتها أخيراً، فهى قد خلقت لذاتها عالما من الألم، ووجـــدت فيه لذاذة ولكنها لما تطلعت إلى ما حولها، ووجدت الناس غير شاعرين بأن لذلك العالم وجوداً تولد فى نفسها الاحتقار لهم، لأنهم لا يشعرون شعورها، ولا يرون ما ترى»[1] وأضيف إلى قول أبى ماضى إعجاب الشاعرة وتأثرها بالشاعر المصرى «محمود حسن اسماعيل» وشعره مصطبغ بهذا اللون.

* * *

وماكان لنا أن نعترض على الشاعرة فى هذا الاتجاه الذى ارتضته والسمت الذى قصدته، ولا نستطيع أن نغفل شاعريتها الثرة التى لا نلمح فى نتاجها أثرا للصنعة أو للتكلف، وستمتلىء قلوبنا إعجاباً بهذا الشعر العذب الدفاق الذى يبرز لنا لوناً من ألوان النظر إلى الحياة، فى نظم جميل، وتعبير بارع عن إحساس حى، وعاطفة صادقة، فى زمن كثر فيه أدعياء الأدب ومدعوه، ولصوص الأفكار، وسراق التعابير

(١) ايليا أبو ماضى: جريدة السمير، نيويورك ٢٦—١—١٩٤٨

وأصبح المجددون فيه ممن نفروا من الخلق الكريم، والقول السديد وركنوا إلى السخرية من أنفسهم وقومهم .

ولم يخل الديوان على الرغم من هذا اللون الغالب الذى ذكرنا من قصائد وجدانية بارعة ، ومقطعات وصفية رائعة ، تنطلق فيها الشاعرة على سجيتها ، فتبدع إيما إبداع كقصيدتها « جزيرة الوحى »[1]

خذنى ... إلى العـــالم البعيد يازوق السحر والخـــلود
وسر بقلبى إلى ضفاف توحى إلى القلب بالقصيـــد
جزيرة الوحى .. من بعيد ! تلوح كالمـــأمل البعيد
الرمل فى شطها ندى يرشف من دجلة البرود
والقمر الحـــلو فى سماها أمنية الشـــاعر الوحيد
فـلتسر يازورقى بروحى قد آن أن يستفيق عودى

وكقصيدتها « مرثية غريق »[2] .

سكن الكون سوى المدح المدوى بأساطير العصور الخاليات
لم يزل يشكو المقادير ويروى أبداً للكون أسرار الحياة

وأخيراً لا يسعنا إلا أن نحيي صداحة العراق ، وشاعرة الرافدين، وأن نرقب للشعر النسوى نهضة وحياة على يد نازك وأخواتها من فتيات العروبة الناهضات .

---

(١) عاشقة الليل : ص ٨٠
(٢) عاشقة الليل : ص ٣٢

المختار من شعرها

الحياة المحترقة

« كتبت الشاعرة هذه القصيدة الحزينة عند ما ألقت بمذكراتها إلى النار »

هذه يانار أفـــراحى وشوقى وشجونى
جئت ألقيهـا إلى فـكيك فى فجرى الحزين
كل مامر بقلبى .. من شقاء .. وحنـــين
القفيه الآن . . لا تبقى لا تستمهلينى

******

هـذه الأسطر .. قد ضمت بقـايا سنواتى
منذ أن ألقت بى الأقدار فى تيه الحيـاة

******

سنواتى كلها .. يانار .. فى هذى السطور
وأغاريدى .. وأشواق حياتى .. وحبورى
وبقايا من حنينى ... وشظايا من شعورى
وأباديد من الأحلام .. والحزن المرير

******

إنها . . أيتها النـار أزاهـــير شبابى
صغتها ذكرى لأحزانى . . ورمزاً لعـــذابى
ومحـا أسطرها دمعى .. وأبلاها اكتئابى
فخذيهـا وأعيديهـا رمادا . . من تراب

******

أحرقيها ! ! لم أعد أعبأ . . لن أبكى شذاها !
إنهـــا . . يانـار . . ذكرى لليـــال لن أراهـا
دفن الماضى خفاياها الخوالى . . ومحاها
وطوتها لجـــة النسيان فى عمق دجاها ! !

******

ذهبت تلك الليـالى . . وطوى الدهر صبـايا
أى نفـــع بعد يانار . . لدمعى ، وأسايا ؟
أى معنى لاذكاراتى ، وشوقى . ومنـــايا ؟
لن يعود الأمس . . لن تلقى سناه مقلتايا

******

أيهـا الحاضر لا تسرع إلى الماضى البعيـــد
ولتقف مركبة الشمس على الأفق المـــديد
ليكن بعد . . صبانا . . تحت أفياء الخلود
آه ! وليمح لفظ الأمس . . من سفر الوجود

******

أو أبدما ترك الماضى من الأحـــزان فينـــا
وامسح الذكرى ولا تبق لنـا الشوق الدفينا
حسبنا الحاضر آلاما ، ودمعـــا ، وشجونا
رحمـــة فلتمسح الماضى وآثار السنينـــا

******

فـــيم تبقى ذكرياتى حيـــة بعدى . وأنسى ؟
كل يوم أسرع الخطو عن العـــالم . . يأسا
وهى ما زالت شبابا ناضرا . . جسما ونفسا
آه ما أعنف أحقادى . . على الذكرى وأقسى !

أيهـا النـار الهبي فى الموقـد الداوى الرهيب
وخذى من فتنـة الذكرى غذاء للهيب
اثـأرى منهـا . . أعيـديها رمادا . . وأذيبى
ودعينى مرة أضحك من قلبى الكـئيب

إلى عينى الحزينتين

عينى أى أسى يرين عليـكما ... ويثير فى غسق الدجى دمعيـكما
إنى أرى خلف الجفون ضراعة ... تستنطق الـكون العريض المبهما
أفقان تحت الليـل ألمح فيهما ... قطرات ضوء يرتشفن الأنجما
الـكون مبتسم فأية لوعـة ... يامقلتى تـــلوح فى جفنيـكما
مسكينتان ! رأيتما مالا يرى ... جيل أقام على الضلال وهوما
جهل الحقائق فى الحيـاة فـلم يطق ... عن زيفهـا هـربا وعاش مهوما
مسكينتان ! كـتمتما حمم الأسى ... فأبى تأوه خافقى أن تكتما
فإذا الدموع غشاوة رفت على ... جفنيكما سيلا سخينـا مفعما
ورأيتما خلـل الدموع مفاتن الـ ... ـماضى وطاف الشوق فى أفقيكما
عبثـاً تصوغان التوسل فى الدجى ... قلب القضاء قضى بألاتنعما

****

عبثـا . . فياعينى لاتتضرعا ... لا شىء يرجع بالجمـــال إليكما
حسبى وحسبكما الرضوخ لمـا قضى ... قلب الليالى فارضخا واستسلما
كم حالم من قبلنا فقـد المنى ... فقضى الحيـاة لوحده متجهمـا

يرعى الليـــالى مانحاً ظلماتهـا روحا مجنحة وقلبا ملهما
عينى يا سر الطبيعة حـــدثا ماذا وراء الكائنات رأيتما ؟
رفعت دياجير الحيـاة ستورها لكما وأبدت سرها المستبهما
هاتا حديث الموت هاتا سره قـد آن يا عينى أن تتكلما
ما شاطىء الاعراف ؟ ما ألوانه ما سره الخافى ؟ صفاه وترجما

****

فى صدرى الخفاق قلب راعش مازال صبا بالمفاتن مغرما
لولاه ياعينى ما غنيتما بهوى الحياة ! ولا أصابكما الظما
عذراً إذا حملتما حزن الدنا لولاى ياعينى ما حملتما
وكفى فؤادى فى الحياة شقاوة أنى جنيت مع الحياة عليـكما !

الســـــفر

أنا وحدى .. فوق صدر البحر .. يازورق فارجع
عبثا انتظر الآن فنجمى . . ليس يطلع
هبت الريـح على البحر الجنونى المروع
فلتعـد للشاطىء الساجى بقلبى المتضرع

******

عد إلى الشاطىء . . عـــد ما عاد يحلولى البقاء
ذهب البحـر . . بأصحابى .. إلى حيث الضيـاء
أنا وحدى . . أيها الملاح . . حزن وبـكاء
يرجع الزورق بى . . وحدى . . إذا جاء المساء

******

ذهبوا .. للشاطىء المسحور .. إذ عدت لوحدى
ذهبـوا .. إلا أنا .. عـدت بأحزانى وسهـدى
لم أصب فى رحلـــتى إلا .. صباباتى وجهدى
فليكن .. يا بحر .. هذا بالمنى آخر عهدى

******

كيف يا بحـر توارى الركب .. خلف الجـزر ؟
كيف يذوى .. فى فؤادى الصب .. حلم السفر ؟
عـز يا بحـــر على موجك بره الصـــدر
فلأعد .. لا رحمـــة الآن بقلب القدر !

******

فلأعد للساحل المظـــلم .. قلبـا مستطارا
أدفن الحلم وأحيا .. زهرة وسط الصحارى
أبـــدا أروي أناشيدى بأحـزان الحيـــارى
أبـدا أحـــلم بالفخـر فـلا ألقى النهـارا

******

أيهـا الزورق عد بى ! لم يعد ثمـة حـلم
قد مضى الركب ولن يشرق فى أفقى نجم
ما الذى أرجو ومن حولى المساء المدلهم ؟
والاعاصير .. وأشـــباح الدياجى .. والخضم

******

أيهـــا الشاطىء . . يامنبع أحلامى . . وداعا
سئم الجـــداف فى كفى . . دفعـــا . . وصراعا
كيف ألقاك . . وقد مزقت الريح الشراعا ؟
ورجائى فيك بين المـــوج . . ياشاطىء ضاعا

******

فلأعـــد ! ! لا سفر اليوم إلى الأفق الجميـــل
لن أرى الشاطىء ! . لن أحلم فى ظـل النخيل
وغـدا رحلتى الكبرى . . . إلى وادى الأفـول
آه فلأرحل إليه . . فلقد حان رحيلى

******

فوداعا أيهـا الركـب وداعا ياحيـاة
آن أن يطفىء أفـراحى وأحـزاني الممات
آن أن تهجر قيثارى وعـــودى النغمات
فسلام أيهـــا الموت ! . ســـلام يارفات

******

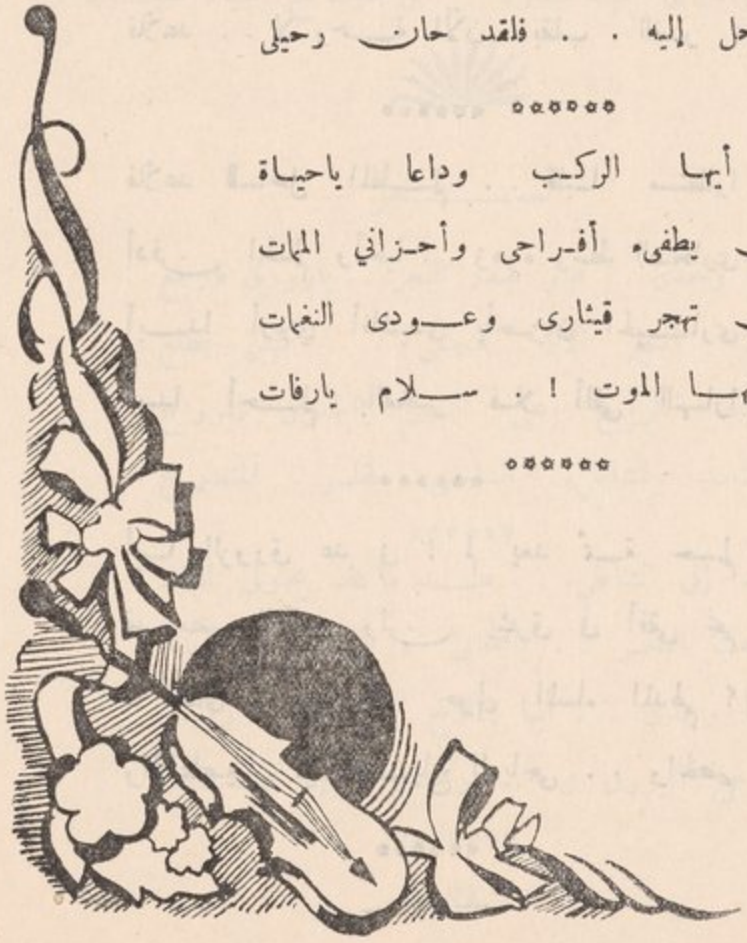

عاتكة

غلنه

بلوت من الأيام كل عظيمة ... وحسبى أنى قـــد ولدت بمأتم
وكانت أغانى المهد لى رنة الأسى ... ووقع نحيب قد برى قلب أيم
ولقنت فى مهدى سجل مآتمى ... وكم هالنى فصل الشقاء المجسم

« وأين يا أماه إذن أبى . . . » ؟

بهذه الحروف تحركت شفتا الطفلة (عاتكة وهبى الخزرجى) حين سألت أمها ، وقد رأت صغار الجار يهرعون إلى أبيهم فيفتح لهم ذراعيه ، ويضمهم إلى صدره فى شغف وحنان ، ولم تجد لها ما وجد أترابها . .

ولم يكن لهذه الأم البائسة من جواب على هذا السؤال الضارع سوى زفرات وعبرات انحدرت على محاجرها . . !

فلقد سابتها الأيام هذا الأب ، وحرمت عطفه بعد مولدها — سنة ١٩٢٤ — بستة أشهر ، وكان أباً تقياً ، شديد الحفاظ على دينه ، شديد الحفاظ على آله . أرخ ولادة عاتكة ، وأعقبها بهذه الدعوات : (سترها الله تعالى ، وجعلها خادمة له ، ولحبيبه صلى الله عليه وعلى آله وسلم) .

ولعله كان يتنبأ حين أردف هذه الدعوة التى تمثله بما كان يعمل له ويتمنى أن يكون المثل الأعلى لوليدته بهذه الحكمة المريرة (ولد الشيب يتيم) ! وقد كان !

وما درى هذا الأب ما حمل الدهر فى طياته من أسباب النبوغ لعاتكة ،

وما ادخر لها من أسباب المجد بشاعريتها الصافية ، وقلبها الموهوب ولكنها لا تزال على رغم السنين تذكر بالحزن والأسى حرمانها من حنان الأبوة وعاطفتها ، وإن كان الله قد من عليها بأم حانية ، كانت تحاول جاهدة أن تنسى طفلتها ما سلبهما الزمن ، وأن تطفىء غلتها وظمأها إلى حنان الأب ، فأولتها عناية الأم الرءوم ، وتسجل عاتكة إحساسها بالأسى والحسرات لفقد أبيها فى أولى قصائدها ، فتقول :

تخال فتاة المهد لا تعرف الاسى ... وإنى عرفت الحزن من قبل مقدمى
كرعت من الآلام ما يجهل الورى ... ومن ثديها سما بصاب وعلقم

وفى عصر العلم والنور الذى شمل العراق فيما شمل من بلاد العالم ، لم تجد الأم مناصاً من أن توجل ابنتها التى حبتها بكل ما استطاعت من أسباب الرعاية باب العلم ، فألحقتها بمدرسة من مدارس بغداد الابتدائية ، وقد ظهر تفوقها على مثيلاتهـــا فى هذا الدور من أدوار التعلم ، واشتهرت بإجادة الإنشاء ، وجودة الإلقـاء ، وظلت محتفظة بهذه المزية حتى اليوم .

ولما أحست شغف ابنتها بالتزود من حياض العلم ، ورياض الأدب لم تقف عثرة فى سبيل طموحها ، فأدخلتهـا مدرسة ثانوية تتعلم مع أترابها ، ولم تكن الأم فى استجابتها لإرضاء طموح ابنتها خارجة على البيئة وتقاليدها التى درجت عليها قيد أنملة ، ففتاتها تذهب إلى مدرستها ،

وتسير فى الطرقات متحجبة عن الأنظار ، وتجلس مع بنات جنسها . حتى إذا أتمت دراستها الثانوية بتفوق عجيب ، أحست بما تكابد من ضيق وحرج . وتنازعها إذ ذاك عاملان : عامل الحفاظ على مألوف البيئة ، الذى يوجب أن تقر فى بيتها لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، وتقطع صلتها بالحياة الخارجية ، وعامل إشباع رغبتها الملحة فى التزود من حياض العلم والمعرفة ، وليس للمعرفة حدود ، وليس ما يلائم أميال مثل هذه الفتاة من معاهد العلم فى العراق إلا دار المعلمين العالية .

وأنى لهذه الغـاية أن تتحقق ، وليس فى هذه الدار قسم خاص بالفتيات ، بل هناك الاختلاط فى مجالس الدرس ، وفى الإصغاء إلى المحاضرات ! وإلى ذلك الحين لم يكن « معهد الملكة عالية » قد أنشىء وقد كان فيه ما يحقق هذه الغاية ويبقى على ما تعمل عليه الأم وفتاتها!

لقد كان فى ذلك الحرج كل الحرج على هذه الفتاة التى نشأت فى مثل البيئة التى ذكرنا ، وعلى النشأة التى رأينا !

ولم تستطع الأم أن توقف تيار الرغبة الجارف فى اتمام دراستها فلحقت بقسم آداب اللغة العربيـــة تجتنى قطوف الأدب ، وتنمى استعدادها الأدبى الفطرى الموهوب ، بزاد مكسوب ، وتصغى إلى أساتذتها ، وتحدث زملاءها مع الإبقاء على مظهر النشأة الأولى ، وهو ارتداء العباءة خارج دارها ولو كانت فى غرف الدراسة ، وفى قاعات

المحاضرة، وفى المجتمعات التى كانت تنتدبها لتشنيف آذان الجمهور بسلافة شعرها .

وظلت هذه سمتها أربع سنين ، حتى أتمت هذه الدراسة العالية سنة ١٩٤٥ ، فعينت مدرسة للعربية وآدابها فى احدى مدارس بغداد الثانوية للبنات . وما يزال الشوق يعاودها الى أن تعيد سيرتها الأولى فتجلس مجلس التلميذ ، ولعل ذلك غريزة فى طبعها ، فطلبت أن ترد مصر تتزود مما فيها من علم ومعرفة ، وأن تلتحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة .

منذ أتمت عاتكة دراستها فى دار المعلمين العالية ، التى كانت تلتزم فى أثنائها الحجاب وارتداء العباءة حتى فى صف الدرس ، وفى إلقائها شعرها ، وكان يبدو عليها أثر الانقباض ، نبذت حجابها ، وطرحت عباءتها ، وبدت سافرة الوجه ، ولعلها قد أحست بحاجتها إلى الطلاقة ، وتحطيم القيود ، لتشارك العاملات من بنات جنسها على نهضة المرأة العراقية ، فقد شبت عن الطوق ، عاملة بقول الشاعر الكبير جميل صدقى الزهاوى :

كل شىء إلى التجدد ماض ... فلماذا يقر هذا القديم ؟
لم يقل بالحجاب فى شكله هـ ... ذا نبى ولا ارتضاه حكيم !
هو فى الشرع والطبيعة والأذوا ... ق والعقل والضمير ذميم !

عرفنا من السطور السابقة الصدمة العنيفة التى منيت بها عاتكة قبل أن تتفتح الزهرة من أكمامها ، ثم هذا الشعور المرهف ، وشدة الحساسية بما تفتقده دون أندادها من أطفال الحى ، وهذا الحادث هو فقد أبيها ، وإحساسها بعظم الرزء فيه .

وكثير من الشعراء والنابغين عباقرة الفنون والآداب والساسة والقادة قد منوا بمثل ما منيت به عاتكة من فقد الولى الحانى ، والأب الشفيق ، فتفتحت عيونهم على مرارة اليتم ، وأحسوا حاجتهم إلى النضال والكفاح فى الحياة ، ليعوضوا أنفسهم عما فقدوه ، فتفتقت مواهبهم ، وبرزت عبقريتهم ، وكسبوا لأنفسهم مجداً فى الخالدين ، فاق كثيراً ما كتب لبعض ذوى الآباء ، وأولى النعمة والثراء .

فلا غرو أن يكون البؤس عاملا مهما من عوامل شحذ العبقرية ليشق صاحبها طريقه فى مضطرب الحياة ، ومزدحم الرجال !

ولا غرو أن يكون هذا العامل سبباً فى إثارة شاعرية عاتكة وتفجير ينابيع مواهبها الأدبية ، وفى الأبيات الآتية تصور آلامها المكبوتة ، وهى طفلة تستقبل الحياة ، وتصور أيضاً نظرات أمها الحزينة إليها :

وألقت على الأم نظرة أيم ... قرأت بها يتمى وتاريخ حسرتى
وكم كنت آسى إذ أشاهد طفلة ... تصيح أبى ، إذ يبتديها بطفلتى
فأسرع فى ذل ويأس ولهفة ... أسائل أمى ، إذ أغالب دمعتى

حنانيك يا أمى ! أما لى من أب ؟ أمالى من كف تكفكف عبرتى ؟
هنا لاتجيب الأم إذ يغلب الأسى فأقرأ فيه ما يضاعف حسرتى !

وفى أسلوب قصصى تصور الشاعرة فجيعتها بأبيها ، وآلام أمها التى لا يخبو أوارها ، فتصف ما تتكلف الأم من مظاهر البشر والسرور ، لتحمل ابنتها على التخلص من الآلام التى أرضعت لبانها :

مررت بها يوما فكانت كعهدها تحاول أن تخفى أسى بتبسم
تهش إلى لقياى نشوى طروبة وليس بها غير الضنى والتألم
برتها يد الأيام ، ثم رمت بها ولم تبق منها غير قلب محطم
ووجه به خط الشحوب سطوره فكن كإيماء لسر مكتم
وجسم به الأشجان باتت قريرة ، فكادت تراه العين بعض توهم ،

وتدع هذا إلى وصف ما تجد من الآلام ، وما تكابد من حرقة الجوى ، ولواعج الأسى :

بلوت من الأيام كل عظيمة وحسبى أنى قد ولدت بمأتم
وكانت أغانى المهد لى رنة الأسى ووقع نحيب قد برى قلب أيم
ولقنت فى مهدى سجل مآتمى وكم هالنى فصل الشقاء المجسم

وتعود الى أمها التى أذواها الأسى وحطمها الدهر :

وأبصرت عن بعد خيالا مهدما يغالب دمعاً بين جفن مورم
وخده قد جفف الحزن ماءه وغاض به نبع الشبيبة والدم
عرفت به أمى فضاعف لى الأسى فأجهشت إجهاش الجريح المكلم
وكفكفت دمع اليتم عطفاً على التى رعتنى وضمتنى بكف ومعصم

لقد كان هذا العامل، وما جبلت عليه الشاعرة منذ نعومة أظفارها من حب الاطلاع ومنذ أتيحت لها معـــرفة القراءة، الأثر البعيد فى إرهاف شاعريتها، فكانت شغوفا بالمطالعة إلى حد بعيد على الرغم من أنها كانت تحيا فى بيت لا يجاوبها فيه صدى لهذه الرغبة الجارفة، وقد لا تساعدها الظروف على اقتناء ما يروى غلتها، فتضطر إلى أن تستعير من صواحبها ما قد تعثر عليه بين أيديهن من كتب وصحف فتفيد منها ما تستطيع ثم تردها إليهن.

وكان من أثر إقبالها على القراءة، وشغفها بالاطلاع، أن قرأت كتاب الأغانى، فطالعت فيه أخبار قيس بن الملوح صاحب ليلى، فتأثرت بهذه الأخبار، وأنشأت منها رواية شعرية، سمتها «مجنون ليلى» ولكنها تختلف عن الرواية التى صاغها أمير الشعراء شوقى فى الفكرة والتصوير، على الرغم من أنهما قد تلتقيان فى بعض المواضع، وقد مثلت فصول من هذه الرواية فى بغداد ظفرت بكثير من الرضا والإعجاب.

✡✡✡✡

أما موضوعات شعرها فهى تلك التى تصور آلام يتمها، وفجيعتها فى أبيها، وما يتصل بهذا من وصف أمها، وتصوير عاطفتها، نحو التى ربتها ورعتها، ولها كثير من القصائد تصف فيها حدب هذه الأم الرءوم وتناجيها.

وإذ قد نشأت عاتكة يتيمة ، ذاقت مرارة اليتم ، وأحست شجاه ، منذ فتحت عينيها لتستقبل الحياة ، فقد كثر فى شعرها وصف البؤس والبائسين ، وقد يحلو لها أن تتبع شاعر العراق العظيم « معروف الرصافى » فى شعره القصصى ، الذى ينحو فيه منحى فريداً ، حين يتتبع البائسين ، ويقفو آثارهم ، حتى يقف على مبعث آلامهم ، ويحاول أن يفشأ عنهم آلامهم بما فى مستطاعه من أسباب السلوى والعزاء ؛ وقصيدتها « بائسة » مثل لهذا اللون ، فهى ترقب ذات حسن أعمل الفقر بها ميسمه ، فاضطرها إلى مغادرة كوخها قبيل الصباح فى طلب الرزق لأولادها الذين خلفتهم فى غمرات الكرى :

قبيل الصباح جفت كوخها ... وأطفالها فى الكرى غارقون
يقضقضها البرد عريانة ... فتلتف بالشعر خوف العيون
مكحلة الطرف وسنانة ... مكسرة الجفن دون الجفون
ترى هدأة الليل فى طرفها ... فهدأته لغز تلك العيون
وتحت دجى شعرها طلعة ... وفيها يطل الصباح المبين

وبعد هذا الوصف البارع للبائسة الجميلة ، تنتقل إلى وصف البؤس الذى أحال ألحانها أنيناً ، وإلى القلق الذى يساورها ، والدمع الذى يغالبها ، والعدم الذى مزق خدر جمالها :

دم الورد قد ضم لكنه ... أشد احمراراً وطيباً ولين
يضم عقود جمان ترى ... إذا وقع الثغر لحن الأنين

تميس من البؤس ولهانة مقلبة الطرف كالحائرين
فحيرنى أمرها إنه لأمر يضيق به الصابرون
وآلمنى دمعها فانبرت تهل على الطرس هذى العيون
وأحزننى عدمها ذا الذى يمزق خدر الجمال المصون

إن هذه القصيدة بمعانيها لتعيد إلى أذهاننا قصيدتى الرصافى البارعتين « الأرملة المرضعة »[1] و « اليتيم فى العيد »[2]، ولا غرو أن يوجد مثل هذا التشابه بين شاعرين ذاق كل منهما آلام الحياة، وفى بيئة كثيراً ما تقع فيها العين على مناظر الألم والبؤس، وشعر الرصافى معروف متداول، والمتأثرون به كثيرون.

هذا الولوع بالحزن، ووصف مظاهره وآثاره فى النفوس، ومشاركة المحزونين فى أحزانهم، له ما يبرره فى طبيعة عاتكة، وطبيعة نشأتها يتيمة حرمت عطف أبيها وحنانه، ولما تزل وليدة فى مهدها، وإن كان يضطرنا الوقوف على كنهه وسره وعلله عند زميلتها « نازك الملائكة » كما سلف القول الى جهد ليس بالقليل.

✡ ✡ ✡ ✡

وسائر أغراض عاتكة وليدة البيئة التى نشأت فيها. والجو الذى يحيط بها.. فلقد انحدرت من أصل عربى صميم، ونشأت فى بيئة عربية، وتثقفت ثقافة عربية، وإذ كانت كذلك فقد اعتلج بين جوانحها

---

(١) ديوان الرصافى ص ٢١٧
(٢) » » ص ٧٤

ما يعتلج بين جوانح العرب المخلصين لعروبتهم وقوميتهم فى عصرنا الحاضر . وأكثر الأمور إيلاما لنفسها الحساسة ما يجد أهل فلسطين ، وما يقاسون من آلام التعذيب من الصهيونيين الذين يعملون على أن يجلوهم عن أوطانهم ، ومهبط عزهم ، وموحى ذكرياتهم وأمجادهم .

ولها فى هذا الغرض عدد من القصائد التى تفيض بالحماسة ، وتلهب جذوة النفوس ، وتهز المشاعر ، وتحيي النفوس الكليلة ، وتحفز العزائم الخاملة ، للظفر بآمال عرب فلسطين التى يجدها كل عربى أمله الموموق ، ويجد فى تحقيقها عزه المرموق .

وهذه إحدى قصائدها فى هذا الباب « فلسطين هيا ثورة عربية » تبدؤها بوصف اعتداء الانجليز على حريتها ، وحمايتهم للأعداء من أبناء صهيون الدخلاء :

إليك عن الشكوى فلسطين إننا ... نفوس ستحيا أو تكون حطاما
نفوس أبت أن تستكين لفاتح ... يرى الظلم دنيا والسفاه إماما
يقوض أركانا ليسند ركنه ... ويخفض هامات ليرفع هاما
تحكم فى خيراتنا وأحالنا ... عبيداً عليها أن تذل دواما
وقد جاء يبغى اليوم إيواء عصبة ... صهاينة فاختار منك مقاما

وتنتقل إلى صدى أحداث فلسطين فى نفوس العرب قاطبة ، وأثر خطوبها فى العراق وساكنيه بخاصة :

فلسطين آه من دموعك إنها تؤجج فينـــا لوعة وضراما
وشكواك فى قلب العراق رنينها يدوى فيبرينا أسى وسقاما
فبغداد أضحت كالعروس تأيمت ولما تزل نشوى تذوب هياما
وعادت بها الأعراس وهى مآتم وأقداحها أمست تضم سماما
وعاد ضجيج اللهو صمتاً مروعاً تخال به الأقوام بتن نياما

إلى أن تقول :

لقد جمعتنا يافلسطين نكبة كما تجمع الاحزان شمل يتامى
فلسطين حتام السكوت عليهم وقد حسبونا لانطيق كلاما
فلســطين هيا ثورة عربية تصير أبراج الطغـــاة ركاما
فلسطين شنيها ضروسا لنارها تكون جسوم الظالمين ضراما
فإما حياة تحت راية واحدة وإما تروينا الطحون زؤاما

ومن قصائدها العربية قصيدتها « دجلة تحيى النيل » وفيها إشارة إلى الروابط الثقافية والدينية والتاريخية التى تربط مصر والعراق ، وإشادة بفضل مصر، وأثرها فى نهضة الشرق العربى فى مختلف مناحى النهضة الحديثة فتقول :

إنا ليجمعنا نطق وما اختلفت منا الدماء ودين بالهدى قاما
ومبدأ الوحدة الكبرى يقربنا قربا تخال به الإيوان أهراما
وإن تاريخكم مازال ينبئنا بأنكم كنتم للمجد أعلاما

ثم تبدى حنينها إلى أن تعيش فى ربوع النيل ، فتروى ظمأها .. وتأمل أن تحقق الأيام آمالها فتفد على وادى النيل ، تنهل مما فيه من

علم وليس يثنيها عن إبداء هذه الأمنية المحببة إلى نفسها حبها بغداد مستقرها ومسقط رأسها فتقول :

يامصر حيتك روحى وهى ظامئة ... لأن تعيش بقرب النيل أياما
وإن أبى الدهر إلا أن يخيبها ... فلا تجورى وأهدى الروح أنساما
أهواك مصر وما كانت تحولنى ... بغداد عنك ولا والله من لاما
أهواك مصر ولو راحت تعاتبنى ... أمى العراق لزاد الحب إضراما

ومن شعرها الاجتماعى الذى تصور فيه العلل المنتشرة فى بلدها، هذه العلل التى تفسد على ذوى المثل العليا سعادتهم ، وتقض عليهم مضاجعهم :

فأنى لمثلى أن تسالم دهرها ... وليس له إلا السفاهة مقصد ؟
وأنى لمثلى أن تسر بأمة ... بها الفرد عبد المال ، والمال سيد ؟
أناس تلاهوا بالضلال عن الهدى ... فليس بهم إلا كفور ومفسد !
فهذا سعى فى الأرض سعى مضلل ... وذاك بدين الحق يهزا ويلحد
تراه وراء الفلس يسعى مهرولا ... ولكنه عن دينه الدهر مقعد
ويأكل أموال اليتامى وإنه ... لأحسن من يحمى اليتيم ويرشد
ويختار من هام الفقير دعامة ... فيبنى عليها قصره ويشيد !

إلى آخر هذه العلل النفسية التى تشهدها فى الناس ، والتى تراها عائقة المجتمع عن النهوض من الهوة السحيقة التى تردت فيها . ثم تعود إلى أسباب البرء من هذه الأمراض ، وهو عندها الرجوع إلى الدين والاعتصام بحبله المتين :

بـــلادكم يا قوم أمست عليلة ترجى دنو الـــبرء ، والبرء يبعد
وأنى لهـا والداء ينخر قلبها وأبناؤها فى قتلها اليوم تجهد ؟
تمنيت أن لو عاد فينا محمد إذن لأتى بعد الضـلالة يرشد
فيا قوم إن مات النبى فحية مبادئه وهى الـــتراث المخلد
فعودوا إلى إيمانكم بعد رجعة فعودكم للحق ياقـــوم أحمد

ومن شعرها الوصفى قصيدتها (على الشاطىء الأخضر) ومنها :

وجاءت من الليـــل أجناده تهيب الرحيل بجند الضياء
فـــولى النهـــار وقـــواده وقد أنذرته جنـــود المساء

****

وزاد السكون جـــلال الدجى وقد ضوأ الليل سحر القمر
هو الليل قلب وذاك الرجا أنار له العيش لمـــا اعتكر

****

ومد لى البدر من نوره خيوطا تخـــال بلا انتهاء
ومد لى البدر من شعره نشيداً يهـز هز جوز السماء

أما أسلوب شعرها فقد رأيت أيهـا القارىء أن عاتكة تنبعث فى الشعر عن طبع أصيل ، ولهذا لا تجد فى عبارتها أثراً للتكلف ، ولا لمحة من التصنع ، ولهذا خلت ديباجتها من محاولة التأنق فى اختيار الألفاظ والتراكيب فلا إغراب فيها ، كما خلت معانيها من الإغراب فى الفكر ، والإبعاد فى الخيال .

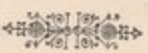

المختار من شعرها

نشيد الأمومة

أنت معنى الحب، بل معنى الحياة ... أنت نور فاض من نور الإله
أنت يا أماه من قلبي مناه ... أيعيش المرء دون الأمل ؟

****

أنت بعد الله رمز يعبد ... تفتديه مهج بل أكبد
أنت يا أماه سر سرمد ... ضل فيه الفكر منذ الأزل

****

أنت.. من أنت ؟ أهدى ومنار ؟ ... ونخار دونه كل نخار
أنت يا أماه لى إكليل غار ... أزدهى فيه ازدهاء البطل

****

أنت نفح الروض عند السحر ... أنت ثغر الزهر غب المطر
فيك يا أماه شتى الصور ... وبها الكون جميلا ينجلى

****

أنت من سامرتنى فى الظلمات ... إذ غفا النجم وعفت الغفوات
أنت يا أماه فقت الأمهات ... فيك وحدك يحلو غزلى

****

أنت من يبذر فى روحى المنى ... ثم أجنيها صفاء وهنا
أنت يا أماه ! هل أنت أنا ... أم ترى لغزك لما يحلل ؟

****

أنت لى الصحب إذا ما أنكروا ... والأحباء إذا ما غدروا
أنت يا أماه ما أدخر ... ليس لى فى الكون إلا أنت لى

****

هـــوى الوطن . . .

قفى أنشدينى من لحونك ما يصبي ... فأنت ابنـة الآلام والشعر والحب
قفى أســـعدى قلباً برته يد الأسى ... ومثلك من يأسو الجراحات فى القلب
حنانيك يا ورقاء كفى عن البكا ... وغني لحون البشر فى غصنك الرطب
حنانيك ! ما يشجيك إذ أنت حرة ... تطير بك الأنسام فى العالم الرحب ؟
ألا ليت لى جنحاً فأهجـــر بقعة ... فشا اللؤم فيها فى الأقارب والصحب
أخوض عباب الجو تحدونى الصبـا ... فأهجر هذا الشرق كرها إلى الغرب
وأصعب ما يلقى الفؤاد إذا قضت ... صروف الهوى سلوان حب إلى حب
وكيف بقلب قد تملكه الهوى ... فأضحى وما يصغى للوم ولا عتب ؟
هوى وطن لم يرع حق محبـة ... وجازاه هجرانا على الود والحب
هوى بقـع فيهـا رفات أحبتى ... وفيها أحب الذكريات إلى قلبي
هوى بقع فيهن مهدى ونشأتى ... ومسرح جدى فى الشبيبـة أو لعبي
هوى بقع فيهن قلت قصائداً ... أحب إلى روحى من البارد العذب
هو بقع ما رمت إلا ســـلوها ... فكان الذى يسلى كمثل الذى يسبي
تنازع فى اثنان : قلب يهيب بى ... أقيمى ، ونفس لا تقيم على غصب
فهذا يرى فى القرب خيراً من النوى ... وهذى ترى فى البعد خيراً من القرب
فكيف أيا ورقاء أسعد فى الورى ... وقلبي ونفسى مقبلان على حرب ؟ !

الفصل الثانى

من

مجنون ليلى

« المنظر : ليلى ، وقيس مقبل من بعيد وعليه حلتان من حلل الملوك وهو يتغنى بشعره مقترباً من خيام ليلى . . . »

وما كان إلا نظرة وجوابها ... فعلقتها إذ علقتها حباليا
وقد زانها دل تحليه رقة ... وليس سوى ذاك الدلال سبانيا
وأسكرنى منها عبير لاجله ... سلوت الأقاحى بل سلوت الفواغيا
وأحسست أن السهم فى القلب نافذ ... وقد كان قبلا لا يجوز الحوانيا !
فسددت سهمى كى أصد سهامه ... فما راعه إلا ووقع سهاميا ! !
كلانا غداً نهباً لسهم أصابه ... فيا من رأى المرمى يصبح راميا !

« زياد راويته يفاجئه على حين غرة وقد سمع شعره »

زياد إذن كنت صيداً ثم أصبحت صائداً ... وكنت طليقاً فانثنيت مكبلا
وأى ظباء الحى يا قيس هذه ؟ !

قيس يثوب إلى نفسه ... ومن أنت يا من قد سألت تطفلا ؟!

زياد « بخبث »

صديق أراه الله قلب صديقه ... وقد شك فيه السهم حتى تغلغلا
ولم يدر من هذا المغير فخته ... أيا قيس بعد الجهل أن يتطفلا !

قيس زياد كفى هزءاً وخل معذباً ... تعشق ظبياً بالفتون مكحلا
ففى لحظه سحر دعانى للهوى ... فأصبحت فيه مستهاماً موكلا
ولو رشق التوباد فى سهم لحظه ... لخر صريعاً للتراب مزلزلا

زياد ومالك قيس لا تسمى ؟ أغيرة ؟ !

قيس ، ضجراً ، حنانيك دعنى لست بعد لأسألا !

زياد ، متوسلا ،
أتخفر عهد الود يا قيس ؟

قيس فاسمها
من الليل إذ أرخت على الظهر أليلا

زياد أليلى ترى هذى ؟

قيس أجل بنت عامر وتلك التى باهت بفتنتها الطلا
تحكم فى قلبى هواها ولست من يقولون بعد الحب قد مل أو سلا !

زياد ألا بارك الله الصبابة والهوى

قيس فليس سوى طعم الصبابة قد حلا

، يقترب قيس من زياد هامسا ،

تعال زياد اليوم أنشدك فى الهوى قصيداً سيبقى في القرون مرتلا

زياد ألا غنى قيس فكلى مسامع
وصفها لنا إن شئت واشرح لنا الوجدا

قيس تعشقت منها دلها وحياءها فتبطن لى وصلا وتظهر لى صدا
تزيد إذا قربت منها تباعداً فتزداد فى قلبى شرارتها وقدا
فدعها أيا قيس فان بعادها يجرعنى صابا فأحسبه شهداً
رضيت بما ترضاه فى دولة الهوى وهل أنا إلا من غدوت لها عبدا ؟

لقيت بها ما كنت أنكر قبلها فقد علمتنى الشعر والحب والسهدا
ولولا هواها ما تجرح خافق وفاض بشعر طاول النجم والمجدا
هى الطهر إلا أنه جل وصفه هى السحر إلا أنه جاوز الحدا
هى النور إلا أنه جد محرق هى النار لكن ليس تخبو ولا تهدا

زياد بلوت الهوى يا قيس أنت بوصفه خبير !

قيس فقل لى هل مجيد له جدا ؟!

زياد أجل هجت فى قلبى دفائن حبه فأحييت ميتا كان قد ألف اللحدا
وثارت بقلبى ذكريات غرامه فعاد الهوى غضا وعادت له سعدى

قيس إذن أنا أحيى الحب إن كان ميتاً

زياد وترعاه طفلا إذ تهز له المهـــدا
فأنت بحق شاعر الطهر والهوى !

قيس وأنت صدى شعرى وأنت الذى تغدى
فدعنى إلى ليـــلى أسير لعلنى أراها فأشكوها عذابى والوجدا

« يمضى زياد تاركا قيساً حيث الليل والبادية والخيام وهو يتأمل سحر القمر قاصداً خيام ليلى »

قيس « متأملا القمر »

لست يابدر مثلها فهى تسمو عن النظر
أنت للعين منظر وهى للقلب كالوتر
هى قدس منزه فوق ما يفهم البشر
وهى لغز معقد حار فيه أولو الفكر
هى لى اللحن صامتاً صيغ فى أبدع الصور
وأنا الناى ملهما نسمة الفجر والسحر

إيه يا بدر نبنى هل بها هاجت الذكر
أم تراها تشاغلت أو حلا دونى السمر؟

«يقترب من الخيام فيلقى فتيات الحى وفتيانه يتسامرون وبينهم ليلى مطرقة فيحييهم ويجلس قريبا منها يجاذبها الحديث»

قيس لم الصمت ياليـــلى ؟

ليلى حنانيك إن لى حديثا بقلبى مادراه لســـانى

قيس هو الحب ياليلى بعينيك ناطق يحدث فى يسر وسحر بيان
ورب حديث أقصرت عنه أحرف وضاقت به بين اللغات معانى
وذاك حديث الروح للروح فى الهوى
يترجم فى لفظ من الخفقان !

ليلى فديتك قيس ! هل ستحفظ عهدنا وهل سوف ترعى الحب كل أوان !
أم انك تنسى إن قضى الدهر فرقة ويسليك عن ليلى دلال حسان

قيس ألم تعلمى ليلاي أنى موكل بحبك مأسور لديك جنانى ؟
فنى راحتيك القلب إن رمت قتله قتلت وإن رمت النعيم أتانى !

ليلى إذن أنت أهل للعهود وللهوى وأنت عزيز لا تريد هوانى
تبادلنى صفو الوداد ولم تكن تنمق لى الألفاظ فى الهيمان
فداؤك قيس الروح لا القلب إنه تقطع من وجد ومن خفقان !

قيس وكيف قضيت اليوم ليلاى ؟

ليلى فى جوى وبين حنـــين شفنى وبرانى
إذا جئت أبغى الغزل كسرت مغزلى وخيل لى قيس بكل مكان !
وكيف ترى أنفقت يومك ؟

قيس سادراً أغنى نشيد الحب فى الجولان

غدوت قبيل الفجر ياليل فالهوى ... وطول الدجى هذا كيان كيانى
أطوف فى البطحاء بين ظبائها ... فأذكر ظبياً بالدلال ســـبانى
وكم قد رنت نحوى فأخطأ سهمها ... وسهمك يا ليلى أصاب جنانى !!

ليلى كلانا أصاب السهم يا قيس قلبه

قيس وهل نحن إلا للهوى هدفان ؟ !
ودنيا الهوى فيها الشقاء سعادة ... وما عزها إلا رفيق هوان !

* * *

ليلى لقد قفل السمار فالليـل موهن ... وتلك نجـــوم آذنت بزوال

قيس ذهلنا عن الدنيا وقد ضمنا الدجى ... غريقى بحـار من هوى وخيال

ليلى نعمت مساء قيس

قيس ليلاى فانعمى ... مساء وعيشى الدهر ناعمة البال

* * *

« يفترقان ، فتدخل ليلى خباءها ويسير قيس حيث الليل وحيث البادية وحيث طيف الحبيبة مائل يناجيه »

الطيف أيا قيس هل أنت المحب المتيم ؟ ... بليلى وهل ترعى هواها وتقسم ؟

قيس سلى القلب يا ليـلى فقلبى يترجم ... ولا تسألى ثغرى فثغرى أعجم
وإلا انظرى فى مقلة العين تقرئى ... سطور الهوى فالعين للحب معجم
حنانيك ما هذا التجاهل والجفا ؟ ... أظلم وجور أم هوى وتـكتم ؟ !
فإن كان جوراً حبذا الجور منكم ... وإن كان حبا فهو خير وأسلم

الطيف وهل قبل ليلى قد علقت ظبية ... تريك ابتسام الصبح إذ تتبسم

قيس أحبـكم قلبى ولم يهو قبلـــكم ... فأنتم له فى الحب مرقى وسـلم
سيبقى على عهد الهوى خير قائم ... فدون هواكم كل شىء محرم

الطيف وما هو هذا الحب ؟ كيف تحسه ؟
بقلبك فاشرح أنت بالشرح أعلم

قيس هو الحب نور قد أضاء لى الورى
وكم بان لى قبل الهوى هو مظلم
وأخرجت من دنياهى الرجس بعد ما
غدا فى سمـــاء الحب قلبى يحوم
وهاب الكرى جفنى وهبت مزاره
فلا أنا أدعـــوه ولا هو يقدم
ومن بات فى أمر عظيم فما الذى
يحوله عنه أليل وأنجم ؟ !

الطيف هواك إذن يا قيس نور وجنة
وطهر وسهد فهو حب معظم

قيس على القلب منقوش بنقش مخلد
فبالطهر مخطوط وبالقدس يختم
ومنه نهلت الشعر فهو ابن نوره
فإن الهوى يملى وروحى تترجم
فلولاه لم أدر القصيد ونظمه
وهل غير قلبى شاعر بات ينظم ؟

« يختفى قيس ويتلاشى الطيف »

ستار

فطينة النائب

متى تهـــتز ياقيثار نشوانا على صدرى ؟
فأنسى قسـوة الأيام والتعـــذيب فى عمرى
كلانا صامت الألحان ! يحيـــا مضمر السر !
كلانا تائق للحن محروق على الجمر !

قدمنا أن هذا النتاج الأدبى وإذاعته شيء جديد على البيئة التى أنشأته ، وقلنا إن أديبات العراق كن مضطرات إلى تجنب مزالق التعبير عن انفعالاتهن الوجدانية وحالتهن النفسية التى تجيش بها نفوسهن الشاعرة [1] ... الخ .

والواقع أننا لم نكن مغالين فى تقرير هذا القول الذى سقناه حين تعرضنا لأدب المرأة العراقية وطبيعة شعرها ، واستقيناه مما انتهى إلينا من آثار أدبها التى لم نجد فى أكثرها ما يفصح عن العاطفة الشخصية فى مجال التحدث عن النفس ، حتى تكون هذه الآثار صدى لخلجاتها ، ونبراساً يضيء السبيل ، سبيل من يحاول استكناه حقيقتها والنفوذ إلى دخيلتها .

على أن إخفاء العواطف وكبح جماح الشاعرية عن الإفصاح عنها والوقوف دون القلم إن حاول التعبير ، قد يكون له ما يبرره فى هذه البيئة التى ذكرنا شدة إيغالها فى الحفاظ على المرأة ، والإبقاء على تقاليدها الموروثة !

ولكن ما كان يدور بخلدنا أن نتصور أن الرغبة فى طى الشعور

---

(١) ص ٢٥ مقدمات

وإخفاء المواهب يصل إلى هذه الدرجة التى ينكر فيها الأديب نفسه ويخفى عن الناس اسمه ، وراء اسم مستعار ، وأن يظل على هذا الستر والإخفاء زمنا له حسابه فى أعمار الأفراد !

. . . وهذه أديبة نابهة فى الطليعة من أديبات العراق ممن أطلقنا عليهن لقب « الرائدات » لها روحها الموهوب ، وشاعريتها المطبوعة التى يلمح الناس نضجها فيما يقرءون مما تسمح بنشره من آثارها فى فترات متقطعة فى الصحف والمجلات، وإنه لقليل ، وليست هذه القلة عن نضوب فى القريحة أو تحجر فى الشاعرية !

وتقع أعين الناس على توقيع مبهم ، لا يعرف أكثرهم شخص صاحبه ، ولا يهتدون إلى كنه كاتبه !

وأنى لهم ذلك ، وقد استتر صاحبه خلف هذا الاسم المستعار واحتجب شخصه بين الجدران ، وانزوى محياه وراء النقاب ؟ !

إن هذا الذى ذكرنا أقصى ما تفعل بيئة مسرفة الحجب والتضييق والحرمان على حد تعبير شاعر النيل حافظ ابراهيم .

وأعتقد بعد كل هذا أن القـــارىء يقرنا على أن ذوات هذه المواهب جديرات بالإكبـار ، جديرات بالخلود معا ، فلقد نشأن فى هذه البيئة التى من شأنها أن تقتل المشاعر ، وتودى بالمواهب ، من تعصب والد ، أو قسوة زوج ، أو تحكم أخ ظالم يظن الشرف كل الشرف

فى حبس النساء فى عقر ديارهن . . وأطلت الشاعرية وحدها على الرغم من كل ذلك تعلن عن رباتها !

****

هذه هى الأديبة الشاعرة « فطينة النائب » التى لا يعرفها الناس إلا باسمها المصنوع الذى تختفى وراءه « صدوف العبيدية » !

ولهذا الاختفاء سببه فلقد نشأت فى أسرة محافظة اشتهر رجالها بالقانون والعلم والأدب والدين ، يغلب عليهم طابع التزمت والوقار ورعاية التقاليد ، ويرون فى الخروج عليها جريمة لا تغتفر .

ووالدها هو الابن البكر للعلامة « عبد الوهاب النائب » الذى كان شاعراً صوفيا ، أرخه العلامة السهروردى فى كتابه « لب الألباب » وينتمى هذا الوالد إلى قبيلة « عبيد » إحدى القبائل العربية المشهورة فى العراق .

وتفخر صدوف بعروبتها وتلقن وليدها هذا الفخر فى قصيدتها التى سمتها « آمال أم » فتقول مخاطبة إياه :

من العرب الكماة ورثت مجدا ... فكن ذخراً فقد صرت السليلا
وسر قدما مع الأيام واصعد ... إلى العليا ولا ترض القفولا

وأمها امرأة تركية الأصل ، ولا يقل الأتراك المسلمون حفاظا على التقاليد ، وغيرة على رعايتها عن العرب .

ومن هذين الطرفين المحافظين ولدت « صدوف » سنة ١٩١٧م وكانت الفتاة المدللة أول عقب لهذين الأبوين ، وأول طفل فى هذا البيت الذى لم يحب على أرضه طفل منذ عشرات السنين ، ولهذا كانت رغبات هذه الوليدة فرضا واجبا تحقيقه ، وابتسامتها سروراً يعم الجميع ، ودموعها ألما يغشى القلوب ، ثم ترعرعت بين وجوه يشع منها الخير ، وقلوب عامرة بالإيمان تفيض رحمة وحناناً .

وكانت صدوف مرآة صافية تعكس ما انطبع عليها ، وتضفى عليه مما يضطرب فى جنبات نفسها من شعور فياض بحب الحياة وبحب الجمال.

ولم يكن أمام صدوف مايزعج سوى قسوة أبيها التى كانت تصدم شعورها ، بغيرته الشديدة على فتاته ، فما إن شبت وبدأت تحس بالحياة حتى حرم عليها هذا الوالد الخروج من المنزل،فصبرت على قسوته كارهة وعيونها تتطلع إلى العالم ، ظامئة إلى كل ما حرمته ، إلى رؤية الناس ، إلى صداقتهم ، تضطرب فيما يضطربون ، إلى الحياة . . إلى أجوائهـــا الساحرة . . حيث ينطلق شعورها كغدير رقراق ، لاتصطدم أمواهه إلا بما يزيده رونقاً وصفاء .

ولئن كانت قسوة الوالد على الصورة التى رأينا ، فان جدها الذى كان شغوفا بها ، حانيا عليها علمها القراءة والكتابة التى أجادتها قبل أن تلج باب المدرسة فى الثامنة من عمرها ، وزادها تعلقا بالقراءة

وحب الاطلاع محاولة أبيها الحيلولة بينها وبين ما تهوى على الرغم من المكتبة الفريدة التى كان يقتنيها . . وحب شىء إلى الإنسان مامنع !

طالعت صدوف فى أثناء دراستها كثيراً من أمهات الكتب فى اللغة والأدب ، مما كانت تقع عليه عينها ، ويصادف هوى فى نفسها ، ولم تكن لتفهم ما تحوى هذه الكتب ، أو تعيها حق الوعى فى هذه السن المبكرة ، ولكنها كانت تجد بين سطورها ماتهفو إليه نفسها من شعر رقيق تحفظه ، أو طرفة لطيفة تستهويها ، وترويها فى الليل لجدتها .

وعينت معلمة فى المدارس الابتدائية ، بعد أن حصلت على ما يرشحها لمثل هذه الوظيفة من دار المعلمات سنة ١٩٣٧ م وكانت لا تزال مولعة بحفظ الشعر ، وحاولت لأول مرة أن تصوغ شعراً عرضته على بعض المقربات منها من الأديبات ، فوجدت من لدنها استحساناً وتشجيعاً على الاسترسال فيما بدأت ، فأكثرت حتى سلس لها قياد الشعر ، ومرنت عليه حتى كانت لا يمضى عليها يوم دون أن تصوغ قصيدة فى يسر وسهولة ، ونشرت بعض قصائدها فى الصحف والمجلات العراقية بعد إلحاح من محرريها ، فإنها لا تعنى — إن طوعاً وإن كرها — بإذاعة شعرها ، وإنما الذى يعنيها أن تستجيب لطبيعتها الشعرية ، دون أن يعنيها أن يقرأه إنسان ، وقد لا تعيد هى قراءة ما كتبت ولا تعنى بتهذيبه وتنقيحه .

إن شعر صدوف يمثل أول ما يمثل ما تحس من آثار الحجب الذى عانته منذ بدأت تستقبل الحياة ، يمثل ما تجد كل فتاة ألزمها أهلوها المنزل ، وضيقوا عليها الخناق ، فى عصر تنفست فيه المرأة ، وأخذت تدنو من الرجل قليلا قليلا ، ويمثلها لا تجد ملجأ ولا معاذاً مما تكابد غير الخلود إلى الصبر ، بعد أن يئست من إراقة دموع لا جدوى منها . . فلا شىء غير الاستكانة للقـدر ، والاستسلام لأحكامه القاسية :

ليلى رأيتك فى ضـــلال فاضحكى وتبسمى
ماكل ما نرجـــوه ميسور لنـــا فتعلمى
والصبر أسمى ملجأ ولك السوانح فاغنمى
يوم لنـــا بسعادة يسوى شهـــور تألم
ليلى فديتك ! لا تريقى الدمع لا تتحسرى
إن الدموع أعز من نعم الوجود فوفرى

وتنصح صدوف لوليدها الذى يستقبل الحياة أن يرفض الخضوع والاستسلام ، وأن يأبى الذلة والهوان ، ولا شك أن هذا النصح من قلب ذاق مرارة ما حذر منه :

فديتك لا تهن وارفض خضوعاً فلست منای إن كنت الذليلا

وتناجى قيثارها ، فتبثه ألمها من الناس الذين لم تهنأ بقربهم ، ولم يبادلوها ودها وقد هاموا بالقشور وعافوا اللباب :

مللت الناس يا قيثار . . . لم أهنأ بهم قرباً
ولم يدروا معانى الود ، أو يصفوا لنـا قلباً
وهاموا ويلهم بالقشر . . . لم يستذوقوا اللبـا

ولها عدا هذا الغرض قصائد ومقطعات وصفية ، ولكنك تلمح فى ثنايا ما تأتى به من الوصف آثار ما تجـــد من الحزن والأسى كقصيدتها « فراشة حول النار » التى تقول فيها :

حامت على النار لم تخش اللظى أبدا
وأسلمت جنحها للنـار فاتقـــدا
تدور ناشـــدة إحراقها عمـــدا
وقلبها من غليل الوجـد ما بردا

وقد اجتمع لديها ممـا نظمت أربعة دواوين هى « آلامى » و « أحلامى » و « رنين القيود » و « سعير الروح » .

وهذه الأسماء وحدها التى تخيرتها لمجموعات شعرها تدل على الحالات النفسية التى أوحت بهـا ، والظروف التى أملتها ، ومقدار ما ينازعها من الشوق إلى الحرية والحياة .

تزوجت صدوف منذ سنتين من ابن عم لها ، إن لم تدفعه نعرة التعصب ، فهو يخشى والدها أن يغضب إن خالف ما أخذها به منذ طفولتها ، ويخشى بيئتها أن تسخط إن هو سمح لها بالبروز فى المجتمعات ،

فإنها كما قدمنا من أسرة دينية شديدة المحافظة ، وأكثر رجالها من ذوى العمائم .

وعلى هذا فإنها فى حياتها الجديدة لا تختلف كثيرا عنها فى حياتها الأولى فى بيت أبيها ، سوى هذه السلوى التى تجدها فى طفلها الحبيب الذى تجد فيه مثاراً لشاعريتها .

من نـــــثرها

أحب ثورة الطبيعة ، كما أحب سكونها ، إن وجدت للثورة فى نفسى أصداء وترجيعاً . !

إننى متفائلة حتى باليأس ، واثقة بالله وعنايته ، حتى عندما أرى الدنيا ظلاما ، والآمال حطاما . !

أحب كل الناس ، وقد لا أحب ! لكننى لم أكره بشرا فى حياتى حتى من أساء إلى وآلمنى . !

أحب الحياة ككتاب لذيذ جدير بالقراءة ، كما أحب الموت ككتاب لم أقرأه بعد ، وإن أحسست أحيانا أنه بيدى ، وأنى على وشك قراءته !

الحياة .. مآس أو مسرات .. لذة أو ألم .. وما بينهما غير موجود !

المختار من شعرها

فراشة تحترق

« .... وتأبى الفراشة العنيدة إلا أن ترتمى وسط اللهيب »

أنا :ـــ أفراشتى الولهى رأيتـــك ترتمين عـــلى اللهيب
أفلم ترعك النار أم قد غبت فى دنيا القلوب ؟
لهفى عليك فإن جسمك باللظى الوارى يذوب
فإذا استطعت تباعدى فلسوف يقتلك الوجيب .

الفراشة :ـــ إنى أحب من الهـــوى لوعاته ولهيب جمـــره
وأحب لهفة ظامىء ، وأعيش فى شغل بهجـــره
ما لذة الدنيا إذا لم يتصل حلوى بمره ؟؟؟؟
إنى لأقصد ناره الحمراء كى أفنى بحره ....

أنا :ـــ واحر قلبى من لهيب راح يسرى فى جناحك
أترى سيبلغ للفؤاد وهل يضاعف فى جراحك
لم لا تحبين الرياض فبينهـــا أسنى مراحك ؟
وعلى الزهور يطيب عيشك فى مسائك أو صباحك

الفراشة : — إنى أحب الزهر لكن اللهيب به الغـــرام
فإذا بعدت تسعرت نار يضاعفهـــا الهيـــام
ناران واريتا اللظى هذى الحياة وذى الحمام
والقلب بينها بغلة وجـــده أبدا يغـــام .

أنا : — أفراشتى رفقـــا فنفسك لا يقر لهـــا قـــرار
حتـــام يخدعك البريق فترتمين عـــلى الشرار
أنت الرقيقة لا يطيق جناحك المخضـــل نار
فارضى ببعدك واصبرى ، فلربما أجدى اصطبار !

الفراشة : — هيهات أبعد عن لهيب لذتى فيـــه العـــذاب
هولى الحياة وإن نأيت فما الحياة سوى سراب
يا سعد نفسى حين يغدو ذوب روحى بانسكاب
لا تحسبن طموحة تجـــد الغنيمـــة بالإياب

دموع ليلى

«ورب شكوى صامتة أمض من صراخ محزون» !

ليلى رأيتك فى ضلال . . . فاضحكى وتبسمى
ما كل ما نرجـوه ميسور لنـا . . . فتعلمى
والصـبر أسمى ملجأ ، ولك السوانح فاغنمى
يوم لنـا بسعادة يســوى شهور تألم !
ليلى . . فديتك ! لا تريق الدمع ، لا تتحسرى
إن الدموع أعز من نعم الوجود فوفرى

❀

ليلى دموعك فى الفؤاد غدت لهيبا سائلا
يحيا عذابك فى العروق أمام عينى ماثلا
فيحيلنى ألما يمــزق أو حنينـــا هائلا
يجتاحنى ويهزنى والقلب يحنـــو قائلا
ليلى فديتـــك ! لا تريقى الدمع لا تتحسرى
إن الدموع أعز من كل الوجـــود فوفرى

فراشة حول النار

حامت على النار لم تخش اللظى أبدا
وأسلمت جنحها للنار فانقدا
تدور ناشدة إحراقها عمدا
وقلبها من غليل الوجد ما بردا
لم القساوة والتعذيب يا شرر ؟
وشوقها دائم الإضرام يستعر ؟

أتعشقين اللظى والجمر قتال ؟
وتطلبين الأسى والجرح سيال ؟
أغرتك فيه أساليب وأميال
نخلت أن الشقا والبؤس آمال
وقد صبرت على ما رامه القدر
وقلبك الغض مشبوب ومنتظر

القيثار الصامت

إلام الصمت يا قيثار قد هيجت أشجانى ؟
فلم أسمعك آهاتى ولم أنشدك ألحانى
متى أصغى لألحان عذاب دون أحزان ؟
متى ألقاك يا قيثار قد أخمدت نيرانى ؟

متى تهتز يا قيثار نشوانا علي صدرى ؟
فأنسى قسوة الأيام والتعذيب فى عمرى
كلانا صامت الألحان يحيا مضمر السر
كلانا تائق للحن محروق على الجمر

مللت الناس يا قيثار لم أهنأ بهم قربا
ولم يدروا معانى الود أو يصفوا لنا قلبا
وهاموا ويلهم بالقشر لم يستذوقوا اللبا
وقد مجوا مذاق الصدق بل واستعذبوا الكذبا

مليكة

غلذع

أعيش فيهم خيالا روحه شردت
تجوب آفاق كون غير منظور
يا للعذاب! فروحي لا إياب لها
والجسم لا يترك الظلماء للنور

وهذه زهرة أخرى من الزهـــرات اليانعة فى رياض الأدب فى العـــراق . .

وتربطها بزميلتيها « نازك » و« عاتكة » رابطة من أوثق الروابط النفسية . وذلك هو رباط « الألم » !

أما ألم نازك فألم نفسى مبعثه كما رأيت إحساس الشاعرة وحدها بما فى الكون من آلام ، فآلامها صدى ما تحس بما فى الكون من هذه الآلام . .

ومبعثه عند عاتكة إحساسهـــا بألم اليتم حين بدأت تستقبل نسمات الحياة . . !

أما مبعثه عند لميعة فمجموعة آلام . . من الفقر الذى نشأت فيه ، وإلى المرض الذى قاسته صغيرة ، ثم اختزام الموت أباها الذى كان يؤثرها بحبه !

عركتها أنياب الدهر ، ومخضتها نوائبه منذ طفولتها ، فكانت كالزهرة يصيبها الطل فيزيدها تألقا والتماعا ، وتنال منها الحوادث فتشحذ عبقريتها ، وتثير كوامن مواهبها .

قضت زمن طفولتها مريضة سقيمة ، وللمرض بأسه وسطوته ، ثم

اغترب عنها أبوها فى طلب الرزق والمجد إلى أوربا وأميركا ، وللفراق آلامه ووحشته ، وعاد هذا الأب إلى وليدته بعد ضرب فى الأرض صفر اليدين مما كان قد منى به نفسه وأهله ، فذاقت معه مرارة الفشل ، وشاطرته خيبة الأمل !

واتخذ الأب من طفلته سبب تسلية وعزاء ، يشكوها بثه ، ويبثها شكواه ، فأنست به ، واطمأنت إليه ، كما أنس بها واطمأن إليها ، وما لبث غير قليل حتى ودعها الوداع الأبدى ، فبكته أمر البكاء . .

أنشأت لميعة أولى قصائدها ، ولما تزل فى الخامسة عشرة ، وأرسلتها شكاة مما تجد من قسوة وجمود — وهى الفنانة المتحررة — فى بيئتها التى سخطت عليها منذ حداثتها ، فقد كانت رفيقاتها ينفرن منها خوف أن تمتد اليهن عدوى مرضها ، فيمرحن ويتراكضن ، وهى لاتقوى على الوقوف أو المشية الهوينى . .

ولا تزال تذكر على مضض كيف كانت زميلاتها ينظرن إليها بإشفاق ، ويتهامسن . . أن لميعة مسلولة . . انظرن كيف تسعل . . مسكينة تلكن الفتاة !

أرسلت لميعة هذه الشكاة إلى الشاعر الحر « إيليا أبى ماضى » الذى كان يعرف أباها ، وتربطه به صلات ود وصداقة حين جمعتهما الظروف فى مهجرهما شجعتها تلك الصلات على أن تبدأه بالشكوى .

أنا الغريبـــة فى أهلى وفى وطنى وأنت يجهل معنى روحك البشر
وأنت تعرف روحى حيث تشبهها وليس يخفى على لألائك الخبر

وتفزع إليه من بيئتها ليكون من دعاة صلاحها :

عدد مساوئها ، واذكر محاسنها قد ضقت ذرعاً بها ، وانتابنى الضجر

فيجيبها « أبو ماضى » بكلام طويل جاء فيه :

« . . . أيتها الشاعرة الصغيرة . . . إذا كان حولك أناس مات فيهم الحس ، وتحجر الخيال ، فهذا لا يوجب عليك أن تقنطى من وجود أناس أهل حس ، وأصحاب خيال ، فإن وجود فتاة فى مثل عمرك لها هذه النزعات الجميلة فى الحياة دليل لا يدحض على أن العراق يمشى بفتياته وفتيانه إلى عصر جديد سعيد . .

وأخيراً أسوق إليك هذه الأبيات :

ابسمى كالورد فى فجـــر الصبا وابسمى كالنجم إن جن المساء ألخ

وقد طلب إليها أن تنشده غير هذا من أشعارها ، فأرسلت إليه قصيدة عنوانها « يانفس » ولشد ما كان دهش أبى ماضى عنـــدما وازنها بقصيدته « يانفس » ! فألفاهما تتفقان فى الوزن ، كما تتفقان فى توارد الخواطر ، وحسب أن تلميذته قد تأثرت بقصيدته ، وكانت هذه القصيدة فى ديوانه « الخمائل » الذى لم يكن دخل إلى العراق منه شىء سوى نسخة واحدة هى التى أهداها للشاعرة فيما بعد !

ومطلع هذه القصيدة التى نظمتها فى لحظة ألم وضجر ، وأرسلتها اليه :

ابتسمى يا نفس وانسى الألم وشاركى الغريد عذب النغم
فكل ثغر للربيع ابتسم إلاك يا نفس ! فما تطلبين ؟

****

الروض والزهر وشتى الطيور والجدول المنساب بين الصخور
قد عم كل الكائنات السرور إلاك يا نفس ! فما تبتغين ؟

وظل التجاوب بين الشاعرة وبين أبى ماضى ، والتأثر بأدبه يزدادان يوما بعد يوم ، فعلمها كثيراً من الصراحة والجرأة ، والتحرر من القيود . .

وأول باكورة لهذا التحرر المقالة الأدبية التى كتبتها فى مجلة « عالم الغد » البغدادية وعنوانها « أنا وعباءتى . . ! »[1] وكان لهذه المقالة أثر كبير ، فقد أحدثت دويا فى محافل الرجال ، ومجامع النساء ، تنكر لها الجامدون ، وطرب لها المجددون ، وفيها شنت لميعة حربا شعواء ، على هذا الغطاء التقليدى بأسلوب وصفى بارع ، يقرؤه القارىء ، فيسحره أسلوبه الهزلى ، ويدهشه مايرمى إليه من الأهداف البعيدة على الرغم من أن الكاتبة لم تصرح بهذه الأهداف ، فهو الهزل الذى يراد به الجد عند البلاغيين .

---

[1] « عالم الغد ص ٣١ من العدد التاسع = ٢٨٧ من السنة الأولى .

وقد عالجت فى هـــذا المقال مقدارما تجر العباءة على لابستها من قبح المنظر ، وما تسبب لها من التعثر فى سيرها ، وفقد التناسق فى حركاتها ، فضلا عما تجر إليه من الفساد فى بعض نواحى المجتمع ، حتى أنها لتجعل هذه العباءة سبب ركود النهضة الأدبية فى العراق ! ومن قولها فى ذلك :

« إنى متأكدة أن أهم سبب فى تأخر النهضة الأدبيـــة فى العراق يرجع إلى تأخر المرأة وبالأخص حجابها . . ! من ذا الذى يلهم الشاعر غير الغيد الحسان . . ؟ وما يثير خيال الأديب غير رؤية الجمال . . ؟

إن أدباءنا بائسون محرومون ، يقتل الحرمان مواهبهم ، وفى بلاد أخرى يوقظ الجمال المواهب » !

وترى فى لون العباءة الأسود سبباً من أسباب الانقباض التى تغشى أذهان النسوة وقلوب الرجال فتقول :

« وهذا اللون القاتم ، لون العباءة الأسود . . . أو ليس رمز الغم والحزن ؟ لا تكاد تراه العين حتى ينقبض منه الصدر ، وكأن ظلمة عباءاتنا تنعكس على أفكارنا ، فلا تحلم بغير الألم ، ولا تتهافت إلا على رواية البؤس والشقاء ، فلا نكاد نحس بالفرح إحساسه الحقيقى . . وإذا كان المراد من العباءة التستر ، والوقاية من حر وبرد ومطر ،

فلم نشترى العباءات السود ؟ لم لا تكون عباءاتنا حمراً أو زرقا أو خضراً أو غير ذلك من الألوان التى تبهج النفوس ، وتؤدى الوظيفة عينها » ؟ !

ولها عدا هذه المقالة بهذا الأسلوب البارع مقالات نشرت منها : « إلى ابنتى التى لن تولد » و « دعوتان » و « سفر ميمون » وغيرها .

ومن شعرها فى قصيدتها « يا نفس » السابقة :

كون به الحسن قشيب الثياب ... خلعته جريا وراء السراب
أولعت بالقشر وعفت اللباب ... والناس بالصفو غدوا ناعمين

❀

واعجبا يا نفس ! كم تأبهين ؟ ... لتافه الأشياء كم تألمين ؟
لكل قول كاذب تحزنين ! ... ما ذاك يانفس السبيل الأمين !

وكتبت مرة أخرى فى شاعر يظهر أنه أزعجها بأشعاره :

أنت فى أفق حياتى ... كوكب فوق الغيوم
أنت فى روض خيالى ... زهرة خلف الكروم
أنت فى بحر فؤادى ... زورق واه يعوم

❀

أنت همس لا أعيه ... فى حياتنا الصاخبه
أنت شمس فى ضحاها ... أنت شمس غاربه

❀

ليس قلبى أيها المفتو ... ن قفراً أو يباب
أو قبورا سوف تصبـ ... ـيها أغاريد الغراب

ومن صور حب لميعة أباها ، وشدة تأثير شخصية هذا الوالد في نفس ابنته أنها كانت تخشاه ، خشية الاحترام ، في شهوده وغيابه .

وفي البيتين الآتيين توضح مقدار تسلط شخصية هذا الأب على خيال ابنته ، فقد رسمت صورته على خاتمها ، وقد همت بعمل ، ثم رأت أن هذا العمل ، قد لا يروق له ، فارتدت عنه ، إذ أبصرت صورته على خاتمها ، فقالت من قصيدة طويلة :

أبي كان في خاتمي ثائراً ... يحدق مستنكراً فعلتي !
وأسمعه محنقاً صاخباً ... أتلك الدنيئة ، تلك ابنتي ؟!

ومواهب لميعة ، وبواكير أدبها تبشر بمستقبل باهر لنفسها وبنات جنسها في العراق . وقد يكون من طريف القول أن هذه الأديبة من طائفة « الصابئة[1] » ، ولكن العراق قد غشي بقوميته العربية على هذه النحل ، فغدا سكانه جميعاً يفكرون تفكير العروبة ، وينطقون لسانها ، ويزهون ببيانها .

---

(١) الصابئة في العراق قوم من أهل الكتاب ، يقال إن نبيهم « يوحنا المعمدان » ويحتفظون بأسرار دياناتهم وتعاليمها ، لا يطلعون عليها أحداً من غيرهم ، ويكثرون في لواء « العمارة » يقيمون حول الماء ، لا تحل للرجل عروسه إلا إذا جذبها منه ، ولا اللحم إلا إذا ذبحه فيه ؛ وهم أهل براعة ، يتوارثون صناعة المعادن ونقشها وزخرفتها « بالميناء » ويطلق عليهم عامة أهل العراق وعلى صناعتهم التي ينفردون بها لفظ « الصبة » !

المختار من شعرها

قيثارة

بعثت إلى الأرض قيثارة ... لتأسو بأنغامها الباكسين
وإذ لمستنى أكف الثرى ... سرت نغماتى عليها أنين
فداء لعينيك كيف امحى ... بريق الهوى وسنا النيرين ؟
فداء لثغرك كيف اختفى ... صدى ضحكه وتلاشى الرنين ؟
فداء لقلبك كيف انتهى ... رفيف الجناح وطار السجين ؟
فداء ليمناك بنت الفنون ... لكم أبدعت من فريد ثمين !

سواء إذا أبغضتنى الأنام ... أو ازدحم العيش بالمعجبين
عمرت فؤادى وحطمته ... فهيهات بعدك يوما يلين
عبدتك أنت مثال الحنان ... ولن أسمع الصبية العابثين

أبى خل عنك الردى لحظة ... لتكتب سطراً مع الكاتبين

الأم

أماه ! يا هدى الطفولة والصبا
ويا نغمة الحنان التى تسرى فى نفسى
ويا ملاك الرحمة الذى يواسينى فى مصيبتى
دمت لقلبى حارساً ... ، ودام قلبى لك محباً !

* * * *

كم من حبيب هجر . . . . . .
وكم من زوج غدر . . . . . .
وكم والد من بفيه نفر . . . . . .
إلاك ! فأنت ثابتة كالحجر . . . . .
لا تزعزع حبك الأحداث أو الغير !
إن زلت قدمى صحت .. أمي ..
وإن مسنى سقم دعوت .. يا أمي ..
وإن حف بى خطر ناديت .. واأماه . !
هذه اللفظة على صغرها تبث في قوة هائلة
فما عسى أن يبثه شخصها في ، ويدها تمسح جبيني ؟ !

يمل الطعام إذا تكرر مراراً . . . . .
والحب يضعف أو يموت فى الاجتماع الدائم
فما بال حبك يزداد كلما ازددت منك اقترابا ؟
وما بال الوصال الدائم لا يخفف من جذوته المستعرة ؟

ترتد يدى عن عصفور صغير ..
وينفر قلبى عن صيد فراشة تطير ..
ويحزنني منظر طفل يتعذب
لأن أمى علمتنى أن لكل مخلوق أما تتألم . . !

الموت ... والسلو

بعيد أنت يا أبتى ولكن سلوتى أبعد !
سيبقى الدمع ما عشت وهذا ثوبى الأسود

بعيـــد لا ترى دمعى ولا تبصر ما ألقـى !
ولا تسمع أناتى ولا تألم أن أشقى
بعيـــد أنت يا أبتى ولكن سلوتى أبعـد !
سيفنى القلب من ألم ونار القلب لن تخمد

مقتطفـــات

شجـــــرة

تمر السنون ويمضى البشر وتبقين هازئة بالقـــدر
تراقصـك الريح فى سيرها ويغسل فرعك هامى المطر

الناس ... والنار !

قد علمتنى صروف الدهر باكرة بكل من أظهر الإخلاص لا أثق
الناس كالنار لا ينجو سوى حذر منها ولكن غرير القلب يحترق

الدمية ... والطفل

الناس مثل الدمى تنقاد صاغرة والدهر كالطفل فى لهو يحطمها

خاتمـــة

أخرجنا فى العام الماضى دراسة أدبية لشاعر العراق الكبير « معروف الرصافى » وبيئته السياسية والاجتماعية ، وكان لصدوره إذ ذاك صدى بعيد ، فقد تناوله أدباء العروبة فى شتى أمصارها بالدرس والتحليل ، ولقى منهم اهتماماً بالغاً ، فجرت أقلامهم بالإشادة به والترحيب ، حتى لم تخل صحيفة أو مجـــلة عربية فى مصر وسورية والعراق من ذكره .

وقد كان لهذه العناية البارزة ، والتلقى الكريم ، أجمل الأثر فى نفوسنا ، فقد حقق هذا الصنيع كثيرا مما كنا نرجو من إحساس أدبائنا ومفكرينا بالحاجة إلى خدمة تراثنا الأدبى فى النهضة الحديثة ، والإشادة بأعلامه . وقد أكبروا عامة إقبال كاتب مصرى على دراسة شاعر عراقى عظيم كالرصافى ، ورأوا فى هذا ثمرة من ثمرات الوحدة العربية المنشودة والتعاون الثقافى بين البلاد الناطقة بالضاد ، وإن تصدى لهذا الكتاب واحد من أدباء العراق بالنقد والدراسة فى مقالات دبجها ، ثم جمع شملها فى كتاب ، وكان له كما كان لأولئك فضل محمود وجهد مشكور .

ونقدم اليوم بهذا الكتاب « أدب المرأة العراقية » الحلقة الثانية من سلسلة جهودنا فى خدمة الأدب العربى فى البلد الشقيق . وهو فى الوقت ذاته تحية للمرأة العربية فى هذا الركن الركين من حصون العروبة الأبية .

ومع أن كثيراً من قادة الفكر من رجال العرب قد أولوا المرأة كثيراً من عنايتهم ، فدعوا إلى حريتها ، وعملوا على نهضتها ، ونادوا بحقوقها فى التعليم ، وحقوقها فى الحياة ، إلا أن الإشادة بجهود المرأة العربية ومواهبها وقابلياتها ، ماتزال فى حاجة إلى المزيد .

وقد عملنا على هذه الإشادة من ناحيتنا الخاصة التى نملك ، وأعنى بها ناحية الأدب ، وهى إحـــدى النواحى التى لها أهميتها فى نظرتنا إلى النشاط العربى والتراث العربى منذ أقـدم العصور ، وماتزال لهـا هذه الأهمية فى أيامنا الحاضرة . . .

ولغيرنا - إذا شاء - أن يعالج شئون المرأة العربية فى النواحى الأخرى فى العراق وفى غير العراق ، فيشيد بها معلمة وطبيبة ومحامية ومصلحة اجتماعية ومادة يد العون إلى الرجل فى مواساة المنكوبين ، والأخذ بيد البائسين ، فإن لها فى هذه النواحى جهودا محمودة جديرة بالإشادة والذكر . ومن وراء هـــذه الإشادة خير كثير للمرأة ، وخير كثير للرجل الذى يسره أن يجد لنفسه عوناً على مشاكل الحياة ، واجتياز عقباتها .

وقد رأى أستاذنا الـكبير « الدكتور ابراهيم سلامة » الذى قضى فى أجواء العراق العلمية والأدبية سنوات يذكرها قادة الفكر والعلم والأدب فى القطر الشقيق أجمل الذكر ، ووقف بنفسه على الاتجاهات الأدبية فى بيئاتها المتنوعة ، والذى يضطلع الآن بدراسة الأدب المقارن والنقد الأدبى فى كلية دار العلوم حصن العربية فى الشرق العربى ، رأى أن يمد لنا يد العون فيما نحن بسبيله ، فتفضل بكتابه الـكلمة النفيسة ، التى يطالعها القارىء فى صدر الـكتاب ، جزاه الله عنا وعن الأدب الذى يعمل لخدمته بعقله الحصيف ، وعلمه الوافر ، وبيانه الرصين ، خير الجزاء .

وما توفيقنا إلا بالله ؟

بروى أحمد طبانة

وكتب فى القاهرة يوم الثـــلاثاء ١٦ من ذى الحجة سنة ١٣٦٧
١٩ من أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٤٨

فهرس

أدب المرأة العراقية

إهداء الكتاب ٣

تصدير

بقلم الأستاذ الدكتور ابراهيم سلامة ٥

مقدمات

حديث ٩

الشعر العراقي بين حاضره وماضيه ١٣

المرأة العراقية ودعاة حريتها ١٧

أديبات العراق ٢٣

رباب الكاظمي ٢٧

المختار من شعرها ٣٧

أم نزار الملائكة ٣٩

المختار من شعرها ٤٩

نازك الملائكة ٥٣
المختـــار من شعرها ٧١
عاتكة الخزرجية ٧٧
المختـــار من شعرها ٩١
صدوف العبيدية ٩٩
المختـــار من شعرها ١٠٨
لميعة عباس ١١٣
المختـــار من شعرها ١٢١
الخاتمة ١٢٤

تصـــويب

فى السطر الأول من الصفحة ٢٤ « ينزل » وصوابها « ينزلن »
فى السطر ١٨ من الصفحة ١٨ « حافظ » وصوابها « حافظاً »
فى السطر ١٥ من الصفحة ١١٩ « حياتنا » وصوابها « حياتى »
عدا أخطاء مطبعية أخرى لا يخفى صوابها على القارىء الكريم .

كتب المؤلف

معروف الرصافى :

دراسة أدبية لشاعر العراق وبيئته السياسية والاجتماعية .

الطبعة الأولى . مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٤٧ (نفد)

أدب المرأة العراقية :

الطبعة الأولى . مطبعة العالم العربى — القاهرة ١٩٤٨

(الثمن ٢٠ قرشاً)

نهضة الأدب فى العصر الحديث :

(بالاشتراك مع الأستاذ محمود ابراهيم)

الطبعة الثالثة . مطبعة الزمان — بغداد ١٩٤٦ (نفد)

النصوص الأدبية :

(بالاشتراك مع الأستاذين عبد المجيد حسن ومحمد مرور)

الجزء الأول للسنة الرابعة الثانوية (الثمن ١٢ قرشاً)

الجزء الثانى للسنة الخامسة الثانوية (الثمن ١٥ قرشاً)

DATE DUE

JAFET LIB.
30 JUN 2013
Circulation Dept. 4

طبانة ،بدوى احمد
ادب المرأة العراقية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01036972

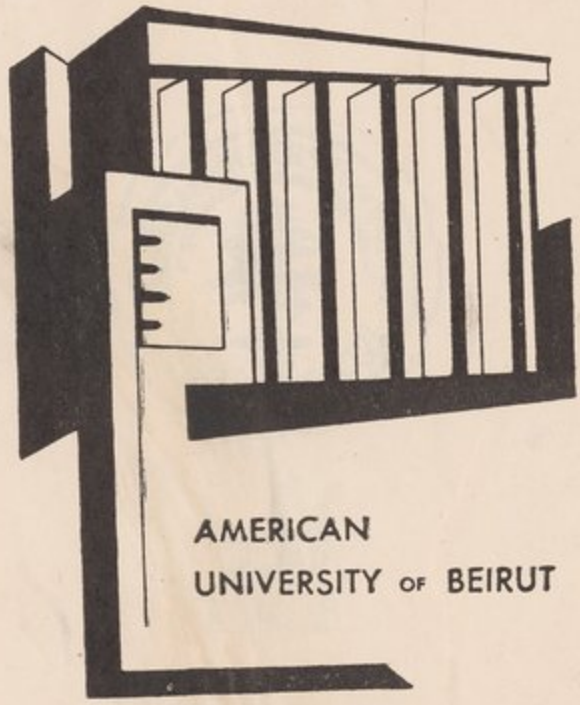

892.7109
Ta 1121a A